

عمر بن الخطاب

مشاهير العرب

④

عمر بن الخطاب

بقلم

أبو بكر ذكري

الطبعة الخامسة



دار المعارف

١ - الزمان والمكان

لكي نعرف . على التقريب . زمان بطلنا هذا الذي خصمنا له هذه الصفحات ، يجب علينا أن نرجع أكثر من ألف وثلثمائة عام مع الماضي حيث كان يعيش ويملاً الدنيا نشاطاً ويسطر على صفحات الوجود أروع آيات البطولة والعبقرية . . ويمكن تحديد ذلك الزمان بحقه تقع على التقريب ما بين ٥٧٠ - ٦٤٠ من التاريخ الميلادي .

أما المكان فهو « مكة » أم القرى عاصمة بلاد « الحجاز » وأهم بلاد الجزيرة العربية خلال القرن السادس الميلادي كله . ولما كان ذلك الزمان بعيداً إلى هذا الحد ، فلا شيء يعطينا صورة من الحياة فيها وفيما حولها إلا أن نرسل عين الخيال النافذ المتصور ليقرب لنا ما بعد ويدنى إلينا ما نأى وتواري في غياهب الماضي .

نستطيع بعين الخيال أن نرى ذلك الوادي الرائع الهادي الذي قامت عليه « مكة » وهو لا يزال دواً أقيح^(١) يبلغ طوله بضعة عشرات من الأميال . ويمتد ما بين الجنوب والشمال . وعرضه يقرب من طوله . ويمتد من الشرق إلى الغرب . ونستطيع أن نرى حوله سواراً من سلاسل الجبال العالية الجرداء القدم . تحف به من جميع جهته ما عدا ثلاث نوافذ ضيقة هي منفرجات بين هذه الخلفات الجبلية التي تلفه

(١) الدوا فكان المقعر . والأقيح : نواصع .

وتحتضنه . وتقع إحدى هذه النوافذ على باب الطريق إلى اليمن ، في الجنوب ، والأخرى على باب الطريق إلى الشام في الشمال . وبينهما إلى ناحية الغرب نافذة على باب الطريق الذاهب إلى « جُدّة » على ساحل البحر الأحمر . ولولا هذه المنافذ ما عرفت الحياة طريقاً إلى ذلك الوادى .

ونستطيع بعين الخيال أن نظوى آلاف السنين طياً سريعاً لنرى أبا الأنبياء « إبراهيم » عليه السلام وقد أقبل من ناحية « أورشليم »^(١) المباركة مهد الأنبياء ، في قافلة تحمله وتحمل زوجته « هاجر » الشابة الغضة الحسنة ، وطفلهما الغض « إسماعيل » أحد غصون اللدوحة النبوية التي بقيت أصولها بأرض « أورشليم » ، وجاء أحد فروعها في إهاب الطفولة ، مع تلك القافلة ليغرس في أرض « مكة » المباركة .

ترى ما الذى أوحى إلى « أبي الأنبياء » بأن يختار ذلك الوادى الجديب موطناً لزوجته الحبيبة وقلدة كبده « إسماعيل » ؟ . لعل وحيًا سماويًا أسر إليه باختيار هذه البقعة لأسرار لا يعلمها إلا الله . . أولعله ، بعد أن ترك أرض الشرك وديار قومه المشركين بأطراف « العراق » مما يلي الشام ، وطوف في الأرض واستقر في أرض « أورشليم » ، قد نمي إليه أن ذلك الوادى الجديب الحصين ، وسط جزيرة العرب ، لا بد أن يكون له مستقبل زاهر ومجد عريض يربطه بأجماد السماء الخالدة . . وإذا كانت أرض « أورشليم » قد ضاقت على زوجته السيدة « سارة » ابنة عمه ، وزوجته « هاجر »

(١) اسم بيت المقدس وهي عاصمة فلسطين .

بسبب الغيرة، فلم لا يقصد بهاجر وابنه « إسماعيل » إلى ذلك الوادى الحصين الوادع ليودعه فرعاً منه وقطعة من نفسه ؟... لعل أحاديث الرائيحين والغادين من كل فج ، فى ذلك الزمان ، كانت تحدل إلى « أبى الأنبياء » أن جميع القبائل التى تحف بذلك الوادى وقوافل التجارة من أبعد الأقطار قد اختارت منه واحة بكرة^(١) تتلاقى عندها الرحال وتحط فوق ثراها الأحمال طلباً للراحة والترود من مائها القليل . كما اتخذت من واديهما الساحر الهادئ الذى لا يعكر صفوة معكر مكاناً للعبادة والتأمل .

وعلى أى حال فقد كان هذا الوادى الحديد هو البقعة التى اختارها وطناً لولده « إسماعيل » وأمه ، فأنزلهما به وليس فيه إلا سكان قليلون من « جرهم »^(٢) وبقايا « العداليق » تتباعد منازلهم ، وتتناهى ديارهم ، من المضارب والحيام والعرائش التى تجدل حوائطها من أعواد النبات اللدن ،^(٣) وتحشى خلالها الحشائش فتقى ساكنها عوارض الجو المتقلبة ، وتحجب أنظار كل ذى فضول وتطلّع أن تاج إلى داخلها . إنها بيوت تبنى بجهد قليل ودون أن تكلف شيئاً يذكر . وكان سكان الوادى وجيرته المتباعدو المنازل لا يحصلون على جرعة الماء إلا بجهود مضية حيث يجلبونها

(١) أى لم تسكن وتعمر .

(٢) جرهم : قبيلة قديمة أصلها من « اليمن » . والعداليق قوم من أحفاد نوح سكن بعضهم

بلاد العرب .

(٣) اللدن : المرن اللين .

من آبار قليلة بعيدة . أو يبحثون عنها في التناهى ^(١) والحفائر البعيدة الغور . بعد نبش الحجارة والحصى منها . ثم لا يجدون إلا وَسْلاً ^(٢) سرعان ما تُنْضِبه دلاء قليلة العدد . وتظهر الأرض من تحته قاعاً صلباً لا يرشح بقطرة من الماء .

ونستطيع أن نقرب من خيالنا « هاجر » جارة الوادى الحديدية وقد أضناها وولدها العطرُ وراحت تبحث في أركان المكان عن الماء بحثاً طويلاً متتابعاً كاد يهدا ويقتلها . لولا أن تداركتها رحمة ربها الرحيم فعثرت على بقعة ترى بايل تكشف لنا عن عين « زمزم » المباركة فشربت وسقت ولدها ، وعادت إلى عريشها تشكر ربها من أعماق نفس مؤمنة بعناية الله ورحمته .

ثم ازدادت « زمزم » جدماً ^(٣) وتدفقاً وبرقت جدماً لعين الطير في كبد السماء فهاتت نحوها من كل ناحية . مرفقة بأجنحتها . تترنم بألحانها المثيرة المطربة . ومن ثم تداعى إلى المكان عرب من « جرهم » وسواهم وبدأت المضارب والحيام والعرائش تظهر تباعاً . وبدأت القوافل المارة بالمكان تنشط وتتكاثر ، وإن كان ذلك في ببطء وتريث .

ثم كانت مشيئة الله بأن يبنى « إبراهيم » أبو الأنبياء . في إحدى

(١) التناهى . الحفر في العصور يرمونها الحفر .

(٢) الوَسْلُ : الماء الذي .

(٣) الجدأ : الماء الصافية .

زوراته لأسرته الصغيرة . « بيت الله الحرام »^(١) ليكون المعبد الأكبر في هذه الأرض وقبلة الرائحين والغادين من كل فج عميق . . وكان في كل زورة لأسرته لا يفتأ يتمتع نفسه ويروى عاطفته الدينية بما في ذلك المكان من سحر الطبيعة التي أحسن الخلاق في صنعها بما لا يدركه الوصف أو يدانيه الخيال . وكم في جنان الطبيعة من إغامات سماوية وسبّحات روحانية تصعد بالروح نحو السماء في أبعاد تفوت المسافات ، وتتخطى كل حواجز العالم وسدوده ، منطلقة نحو اللانهاية والنور الذي لا حد له ولا قياس .

كان في أوقات فراغه يطل من عريش أسرته القابع في هدوئه المطلق فوق الرابية العالية قرب « البيت المقدس » فيروعه وينير روحه ذلك الضياء الرباني المتألق على ما حوله من الثرى المتباين الألوان وعلى الهضاب البعيدة اللامعة ، والكثبان^(٢) الرملية السابحة في الدور بخضرة أعشابها الزاهية الراعشة في نسائم يستدير مهبطاً تبعاً لا يكاد يثبت في ناحية . . وكم راعه وملأ نفسه سحراً وجالاً تبالغ الفجر من وراء قمم الجبال الشرقية بأنوار تتعالى إلى السماء ضاربة في الأفق . صاعدة في القبة الزرقاء ، ملقية على رهوس القمم حلالاً من البهاء جل أن يصنعها صانع سوى يد القدرة الإلهية التي لا حد لما لها من صنائع وعجائب . هناك كانت

(١) أي « الكلمة » المظهرة .

(٢) الكثبان: مرتفعات الرمال والآرتبة .

روحه تسبح في صلواتها وابتهاالاتها ودعواتها إلى الله أن يزيد ذلك الوادى العجيب بهاء ونوراً وأن يرزق أهله من الثمرات لعلهم يشكرون نعمه وأفضاله : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .. وكم راعه وأفعم نفسه جدالاً وابتهاالاتها تداعى الشمس للأفول^(١) وراء سلسلة الجبال الغربية ، تاركة وراءها في الأفق أبداع زينة من ألوان الطيف والشفق الأحمر ، تسقط على القمم الجبلية الرشيقة التي تشبه أبراجاً شيدت على مختلف الأفنان والأشكال . وكم ملأ نفسه جدالاً وجلالاً أسراب الطيور منبئة في بكور الإشراق تطلب رزقها ، وعودتها ساعة الغروب ، تطلب أعشاشها ومواكنها ، وهي ذرافات أو فرادى ، تصدح بأنغام الشوق إلى مهاجعها ومجاثمها^(٢) المملوءة بالسعادة والسلام . وكم أسعده ، وملأ نفسه غبطة وسلاماً ، ساعات من الوحدة كان يقضيها على السفوح وبين القمم ، سابحاً في تأملاته وصلواته ، يرى الوحش من هنا وهناك تتسرب رائحة غادية لا تزعج أحداً ولا يزعجها أحد ، كأنما امتلأت نفسها ، هي الأخرى ، سلاماً وأمناً فلا تهيج ولا تهاج . وما كان أحب إليه من أن يتمتع نظره ، في فحمة الليل الساجي ، بمصاييح السماء وكواكبها ، أو بمصاييح الأرض تنبعث ، متباعدة ، في جنبات الوادى

(١) الأفول: الغروب .

(٢) مجاثم الطير: أعشاشه وأماكنه .

الفسيح من مواعد ونيران تتأجج ، في مضارب وخيام لا يرى منها سوى هذه الأنوار الراحشة ، في أمواج الظلام ، تنبئ بأن في الوادى الحديد حياة تتشبث بالوجود وتقاوم الفناء .

ثم يدور الفلك دورانه المغد^(١) المصن السريع فإذا « إبراهيم » وزوجته وابنه في بطون التاريخ . وإذا قبائل ، ويطون^(٢) من قبائل ، وناس إثر ناس يميثون ويتعاقبون ، بقانون الموت والحياة ، على هذا الوادى العجيب وهو على طبيعته الرائعة التي كان عليها من عهد « إبراهيم » وأسرته الصغيرة ، ما عدا مظهراً آخر من مظاهر التطور العمراني كان يتشكل ويتركز في جنباته وينتشر في ساحاته . لقد كثر سكان الوادى وكثر رواده وجيرته ، وكثرت آبار المياه في نواحيه . وأصبح « البيت المقدس » الذي بناه « إبراهيم » وجهة أنظار الآلاف المؤلفة ترد إليه من شتى البقاع لعبادة الإله الواحد الأحد الفرد الصمد مالك الملك والملكوت الحى الذى لا يموت .

ثم يمعن الفلك في دوراته ويسرع في جريانه ، فإذا الجزيرة العربية أكثر عمراناً وسكاناً . وإذا الموجات البشرية تتدفق من مكان إلى مكان : من « اليمن » نحو « الشام » و« العراق » ونحو « يثرب » . ومن « الشام » نحو « اليمن » ونحو « مكة » و« يثرب » . ومن كل ركن إلى كل ركن

(١) المغد في سيره : السرعة . ومثله الممس .

(٢) البطن : فرع من القبيلة .

وناحية . وإذا التجارة رائجة والزراعة نامية والصناعة متقدمة . وإذا الوادى الحديد الذى دعا له « أبو الأنبياء » بالخير والبركة يصبح ملتقى هذا النشاط ومركزه وبؤرته الطافحة بالنعم وما شاءت العين أن ترى من ثمرات وأرزاق .

ولم يكد القرن الخامس الميلادى ينتهى حتى كانت الحياة فى الوادى السعيد قد دخلت فى دور آخر أعظم وأرقى : كان « قصى » من ولد « إسماعيل » بن « إبراهيم » قد جمع قومه من عشائر وبطون وأفخاذ وأصبحوا مجتمعاً كبيراً منظماً هو مجتمع « قريش » .. وكان « قصى » هذ أول من استحدث البناء بدل المضارب والحيام . فبنى لنفسه داراً قرب « الكعبة »^(١) . وبنى داراً للندوة لتكون مؤتمرًا لقريش يتشاورون فيه كلما جد من الحوادث ما يهم ويدعو إلى الرأى والمشورة . . وسرعان ما قلده فى البناء غيره من أرباب الثراء والقدرة . كل على قدر طوقه . ومن هذه الأبنية تألفت « مكة » أم القرى وأصبحت أعظم الحواضر فى تلك النواحي .

وكان أمر القيام على « الكعبة » قد أصبح من خاصة « قريش » ، واستولت على مقاليد الأمور . وسيطرت على مرافق الحياة . وأصبح الحج إلى البيت هو المسئولية الكبرى الملقاة على عاتق « قريش » . كما أصبح لهم بذلك جاه وشرف لا يطاول . فى طول البلاد العربية وعرضها . ولقد زاد من شرفهم وحديثهم تلك الكارثة الكبرى التى نزلت بجيش أصحاب القبيل

(١) بالقرب من جبل « أبو قبيس » وهو من سلسلة جبال الشريفة .

عند ما انحدر من « اليمن » إلى « مكة » لهدم « الكعبة » فدمره الله بالطير الأبايل التي أقبلت في جموع حاشدة من ناحية البحر الأحمر فأسقطت عليه طيناً متحجراً فغشا فيه وباء سريع مزقه شرمزق . لقد كانت تلك الحادثة أشبه بمعجزة مهاوية سارت بذكرها الركبان وأطارت سمعة « قريش » إلى شتى البقاع .

أصبحت « قريش » سيدة الوادي بلا منازع . وأصبحت تجارتها ذات قوافل تملأ الطرق ما بين « الشام » شمالاً و « اليمن » جنوباً والبحر الأحمر إلى ناحية الغرب . وقل أن يمر يوم دون أن تدخل « مكة » ، من إحدى نوافذها الثلاث ، قافلة أو قوافل تحمل إليها الخير والرغد والنعم الوافرة أو تخرج منها محملة بأثمن الأحمال إلى شتى أطراف الجزيرة العربية وما جاورها من الأقطار .

وفي مجرى القرن السادس الميلادي تقدم المجتمع المكى تقدماً عجبياً ووضعت « قريش » حياتها نظاماً يشبه ، إلى حد ما ، دساتير الأمم المتحضرة . فوزعت المسؤوليات والواجبات في شبه التزامات رسمية تسند إلى بيوت « قريش » الكبرى ، كوظائف وراثية دائمة تكون فيها ولا تخرج منها . وكان أشهر بيوتها إذ ذاك بيت « بنى هاشم » و « بنى أمية » و « بنى مخزوم » . و « بنى تيم » و « بنى عدى » و « بنى عبد الدار » و « بنى سهم » و « بنى جمح » وغيرهم ممن كثر عددهم وعدتهم وصاروا أصحاب جاه وقوة . . كان لبعض هذه البيوت وظيفة « المقايبة » وهي تدير الماء

لحجاج البيت في موسم الحج وهو عمل وافر المشقة في بلد قاييل الماء مثل « مكة » . وكان لبعضها « الرفادة » وهي تدبير الطعام لوراد البيت أيام الحج ، ولغيرهم ممن يتزلون على « قريش » ورآدأ ليس لهم زاد يكفيهم . وكان لبعضها « سدانة البيت » وهي القيام على « الكعبة » وما حولها من الحرم ، لدوام العمران والنظافة فيهما ، وتنظيم الشعائر الدينية . وكان لبعضها « اللواء » وهي راية الحرب فيكون القائد ، لو حدثت حرب ؛ من بيت اللواء . وكان لبعضها « السفارة » وهي أشبه بوزارة الخارجية في زمننا هذا . وكان شرفها في بيت « بنى عدى » وهو البيت الذى أنجب بطلنا هذا « عمر بن الخطاب » الذى كان خير من يقوم بهذا المنصب لفصاحة لسانه وثبات جنانه وشدة عارضته ، عند الجدل ، وجبه الصراحة والحق أينما كان .

٣ - مولد البطل ونشأته

لم يكن بطلنا هذا من بيوتات « قريش » ذات الثراء العريض والمال الوفير والترف الناعم ، كما كان الشأن في أخواله « بنى مخزوم » أصحاب الأموال الطائلة والتجارات الواسعة والبساتين الزاهرة التى تقوم ما بين « مكة » والطائف كجنتات تجرى من تحتها الأنهار . وكانوا لذلك يلقبون بريحانة « قريش » . وكان منهم « الوليد بن المغيرة » ذو الجاه العريض والثراء الزاخر . ولا كان لبيته ثراء الثروة من « بنى تيم » كأبى بكر بن

« أبى قحافة »^(١) وقربيه « عبد الله بن جدعان » الذى كان يعد من أصحاب الملايين فى ذلك العصر . ولا كان له ثراء بيت « العاص بن وائل السهمي ، ولا ثراء الثراء من « بنى أمية » مثل « أبى سفيان بن حرب » و « عثمان بن عفان » صاحب الآلاف المؤلفة من الدنانير والإبل والغنم والتجارات الواسعة . أولئك الذين كانوا يأكلون لباب البر ملبوكاً^(٢) بالشهد والسمن ، ويمجرون مطارف الخز والديباج ، وتلبس نساؤهم أرق غلائل الحرير من أبداع ما أخرجت مصانع « اليمن » ومصانع « الشام » وما جلب إليهما من أدق صناعات الأمم المتحضرة ، وأتمن الخلى من لآلى البحرين وكل ما غلائنه من درار لامة .

كان عيش بطلنا وعيش بيت أبيه كفافاً ، وإن كانت أمه من « بنى مخزوم » ماوك « قريش » ، لأن أباه لم يكن ذا حظ فى التجارة التى كانت سبب ثراء الكثير من قومه .

ولد « عمر » العظيم فى هذا البيت المتواضع كما يولد كل طفل من أمثاله فى ليلة كككل الليالى ، بلا جلبة ولا ضوءاء ولا فرح ولا احتفال أكثر من ذبالة تشتعل فى فحة الليل الساجى ، على غير عادة البيوت الفقيرة ،^(٣) حتى لقد عجب من ذلك الصبي اليافع^(٤) « عمرو بن العاص »

(١) هو الذى عرف بعد إسلامه بأبى بكر الصديق .

(٢) معجوناً .

(٣) كانت سقفها من جريد النخل الخفاف . وكانوا يخشون الحرائق فيطففون السرج

عند النوم .

(٤) اليقاعة سن ما دون البلوغ .

وسأل عن سر هذا المصباح الساهر في بيت « الخطاب » فأخبر بأنه قد ولد له ولد . ولم يكن ذلك الولد سوى « عمر » بطل هذه القصة .

ولما فتح الوليد عينيه على أول بصيص من نور الدنيا بدأ يتلقى من العناية والاهتمام ما كان يلقاه كل مولود ذكر في تلك البيئة العربية . التي تعلق أعظم الآمال على كل مولود ذكر يولد فيها . . إنها بيئة التكاثر والتفاخر بالرجال وبكثرة العدد الذي لم يكن للإناث فيسه شأن يذكر . إذ كلما زاد عدد الرجال واحداً زاد رصيد البيت والفرع الذي هو منه دعامة جديدة من دعائم العز والسؤدد . .

ولنستعن الآن بعين الخيال لنرى والده « الخطاب » ذلك الرجل لثيب القوى العود الشامخ الأنف يتسم . رغم خشونته وقسوته . كلما رأى ويده الحديد وتفرس في ملامحه . وتكاد الفرحة تستخف ميزانه وحلمه وورائته فيهتف أو يصفق طرباً أو يرقص تيباً وفخراً . . ثم هو بعد ذلك كلما عاد من أعماله . نتحى من بيته ركناً هادئاً وراح يفكر طويلاً في الآمال العذبة المرجوة من وراء هذا الوليد : إنه بلا شك لن يكون ابن كسرى ، ولا « قيصر » ولا ابن الثروة من بيوتات « قريش » فيلبس الخنز والديباج ويركب الخيل المطهحة . ويبني الدور التميحاء من الأحجار المهذبة المشيدة ويعمل سقفوها من خشب الساج الثمين المحبوب من بلاد « الهند ومن « الهند » إلى « اليمن » ومن « اليمن » إلى « مكة » حتى ليبيع الحمل

منه يقبضه من الذهب الوهاج . . إته لن يكون من الثراء بحيث تفرغ في مخازنه قوافلٌ كاملةٌ أحمالها الثمينة من بضائع « اليمن » و « الشام » .
 حقاً إن « قريشاً » أهله وعشيرته قد أتيج لهم ذلك كله . بل إن فقراء منهم مترين (١) قد أصبحوا أصحاب ملايين . لكنه الحظ الأعمى الذى يخبط خبط عشواء . . إن أحوال هذا الوليد من بنى « مخزوم » لم يكونوا في يوم أشرف من أبيه « الخطاب » نسباً ولا أعظم منه حساباً . إن أعظم ميزة فيهم لا تعدو حلاوة في الألسنة ومرونة تقطر شهداً وكياسة في المعاملة أكسبتهم حب أصحاب المتاجر والأموال في كل مكان . لكن ألا يعد ذلك قدرة على المداهنة والمصانعة والرياء ؟ إنهم في الحقيقة قد مهرؤا في ذلك مهارة لا يطولم فيها أحد . لقد أصبحت القوافل تفرغ في مخازنهم وبيوتهم خيرات الدنيا على سعتها ، وأصبحت بسايتنهم تمتد من « مكة » إلى « الطائف » كجناات تجرى من تحتها الأنهار . سفر يوم كامل لا تخطئ العين زروعهم وجنااتهم ذات الثمار من كل لون وطعم . . وهذا بيت « بنى تيم » أثرى فيه « أبو بكر بن أبى قحافة » (٢) وأصبح ماله يعد بالألوف . وهذا قريبه « عبد الله بن جدعان » ، بعد تشرده وشروره وكثرة جرائمه ، أصبح صاحب آلاف مؤلفة ، وأصبح يملأ الجفان (٣) العظام من لباب

(١) المترب الشديد الفقر .

(٢) هو « أبو بكر الصديق » .

(٣) القصاع .

البر والشهد والسمن واللحوم والثريد الطيب ، ويطلق منادين في دروب
« مكة » يدعون إليها الأكلة ، بلا حساب ، غير منادين ينادون عليها من
فوق داره الفيحاء . . ثم بيت « العاص بن وائل » الذي أصبح لا يحصى
ماله ، وأصبح مجزر « مكة » كلها ملكاً له وخاصة لا يشركه فيه أحد ،
مع عظم غلته الهائلة . ياله من غنى وجاه عريض ! . إن بيوت هؤلاء جميعاً
لتعج بالخدم والحشم والعبيد كما لو كانوا ملوكاً أو أمراء من بيت الملك . .
لكن لم التفكير المضنى في كل ذلك الذي لا طائل وراءه ؟ لماذا نجول في
هذا التفكير الأسود ، ونستمر في نبش ما لا طاقة لنا على نبشه ؟ لقد أصبح
في بيتي « عمر » . ولعل « عمر » سيصبح يوماً كهؤلاء أو أرفع شأنًا وأعلى
مكاناً . إنها الدنيا . أحقر من أن تثير في صدورنا هذه الهموم . حسبي .
وهنا تتجلى هموم « الخطاب » عن نفسه فيقوم كأنما نشط من
عقال ، ويدلف إلى مهد وليده ويمطره قبلات حارة يثلج لها صدره وتنسبه
الدنيا بما جمعت من مال ونشب . . وتقبل عليه زوجته حنمة أم « عمر »
باسمة منشرحة لتحديثه عن مزايا وليدها الجديد التي لم تشهد مثلها في وليد
قط . ويبتسم لها زوجها قائلاً : لعلها كلمات كل أم في الدنيا يا حنمة ..
وتقول هي له : سوف ترى مصداق ذلك إذا انفسح لنا الأجل .

ثم يدور الزمان دورات سريعة فإذا الوليد طفل دارج تشيط يدب
في طرقات « مكة » ودروبها على أحسن ما يكون طفل نشاطاً وخفة ومرحاً .
يصارع الصبيان ويذاحمهم على أبواب النوادي والمحافل والمساخر لسماح

طرب لا يلوى منه أكثر من ضجيج محب لنفسه وكفى . . ثم يشتد عوده فيبُعد الخطا ضارباً في أرجاء الوادى الفسيح، منقياً عن كل معجب باحثاً عن كل مطرب ، غاشياً مع الغشاة بيوت بنى أبيه من « بنى عدى » أو بيوت أخواله « بنى مخزوم » ، حيث كان يذوق هناك من حنان خالاته ما يرنه عنه من خشونة عيش أبيه « الخطاب » .. لقد كانت خالاته بنات الرءا يفغرنه ، فوق بشاشة اللقيا وعذب التحايا، ^(١) بطُرف من المطاعم والمشارب لا تيسر لغير « بنى مخزوم » أصحاب الترف والتنعم بكل الطيبات . فإذا ما تهاً للانصراف أتحنفنه بقبضات من الزبيب الذى كان لا يجلب إلا من « اليمن » أو « الشام » ، مسيرة شهرين للقافلة ، حتى لا يتكلف الحمل منه دنائير معدودة .. كذلك طالما وجدت خالاته فيه غلاماً حزوراً ^(٢) عبقرياً لا يفوته مكان من موارد الماء في وادى « مكة » الفسيح دون أن يعرف حلوه من ملحه وعذبه من تافهه . لقد كان يتخير لهن أعذب الموارد وأوفقها بالترفين فيرسلن من يجلبه إليهن مهما تكلف ذلك من ثمن .

وكان فوق هذا وذاك لا يفتأ يتجول في الحرم ويغشى مجالس « قريش » ، حول « الكعبة » ، يشاهد عبادهم ومتنسكهم ^(٣) يقبلون على ساحة الأصنام بعد أن شاعت عبادتها في الوادى وغلبت على شريعة

(١) جمع تحية .

(٢) الحزور الغلام القوى النشط المتوذب .

(٣) المتنسك المقطع لعبادة .

التوحيد التي أقامها فيه « إبراهيم » عليه السلام . فبقيت هناك أحقاباً ثم تنوسيت وطال عليها الزمان . . لقد كان يهوى مشاهدتهم حين يقبلون على ساحات الأصنام فرادى أو جماعات ، يظوفون بالكعبة . . ويتقدمون إلى الأصنام فيسجدون لها ويمدون أيديهم إلى السماء وهم وقوف أمامها في انكسار وخشوع . كان هذا المنظر مهما تكرر يسره ككل شيء يسره به الطفل ، وإن لم يفهم أى معنى لهذه العبادة العجيبة ولا أية ثمرة لهذه التضمرات . لقد كان شيئاً يبدو له جديداً ساراً كلما رآه . وعلى الخصوص في أيام المواسم والأعياد العامة لهذه العبادات الجاهلية . كان يجد فيها معارض رائعة لموجات بشرية تتدفق نحو ساحة « البيت الحرام » ونحو ساحة الأصنام التي نصبت فوقه وحوله في أوضاع شتى وصور مختلفة . . موجات بشرية من المجتمع المكي في ثيابهم النظيفة ذات الهدام الحسن والذوق الجميل . . وموجات بشرية من البادية في ثياب خشنة تربية من طول السفر ، ونعال خشنة شرسة معفرة مشققة . وبعضهم حفاة عراة لا يسترهم غير مآزر ما بين السرة والركبة قد تنفرج عنهم أحياناً دون قصد منهم ، ودون أن يكون في ذلك أى عجب أو غرابة . أما السادة والأغنياء منهم فكانوا يغالون في فخامة ثيابهم وزخرفها على رغم ما في ملابس الحج من بساطة وخفة . . كل ذلك كان يشوقه ويمتعه ويملاً نفسه بشتى الصور والتفكير الساذج السطحي الذي لا يعدو تساؤلاً نفسياً داخلياً كان لا يجد له جواباً إلا التحول والانصراف عنه إلى مناظر أخرى .

وما أكثرها وأوفرها في بؤرة تتلاقى فيها الموجات البشرية، في كل وضع ، وعلى كل تجاه، كأنها قرية نمل كبيرة دائبة النشاط .

وكان يجد متعة لاحد لما عند ما يرافق بعض أهله إلى « سوق عكاظ » .^(١) كان يشهد هناك سباق الخيل الجياد تطير بفرسانها أسرع من نسور تطلب فراسها ، أو براءة تسرع في طلب صيد سريع . وكان يشهد حابيات الشعر والمناخرة وإنشاد القصائد الحولية ، في حلقات صيخة مكتظة بالناس من كل لون وشاكلة . . وإذا لم يكن في سنة تلك يفهم شيئاً من فنون البلاغة ولا من الألعاب الفصاحة والبيان . فكفاه ما كان يشاهده من مناظر ومظاهر وتقاليد ووجوه وثياب وأصوات وجلبة وضوضاء واحتفالات وتكريمات وتصدية^(٢) بالأكف المتحدسة كلما انتهى شاعر من إنشاده أو انتهى إلى مقطع مطرب معجب . ثم راح المستمعون يحكمون لهذا أو ذاك . وكان يشهد هناك حاققات الرقص من الجوارى الحسان على توقيع الموسيقى العذبة فيحتلى سروراً ونشوة من قدة رأسه إلى أخمص قدمه . . أما حلقات المصارعة فكانت من أحب الأشياء إلى نفسه ، وإن كان يُمِضُّه أحياناً ويحزنه أن ينتصر أجنبي على مكى أو ينهزم قرشى أمام خصم من غير « قريش » . وكهم تمنى لو كان له من سنة وقوته ما ينصر به

(١) كانت تنام بمكة في طريق « الطائف » شهراً في موسم الحج للبيع والشراء وجميع

الأغراض الاجتماعية الأخرى .

(٢) التصدية : التصفيق .

مهزوماً وينصف به مغلوباً ويرد به حق ضعيف أمام قوى . . وكان
« عمر » كلما رجع بنوته من هذه المشاهد راح يقصها على أهله في حماس
وتأثر ينان عن نفس حية شاعرة لا يعلم إلا الله وحده حدود ما تحوى
من عجائب وغرائب .

٣ - « عمر » في البادية

ولنضرب الآن بعين الخيال مرة أخرى لنرى بطلنا هذا وقد اشتد
عوده ، وأصبح في نظر أبيه « الخطاب » قادراً على حياة البداوة وراء
الإبل والشاء التي كان يقتنبا قطعاناً ويرسلها إلى سفوح الجبال وبطن
الوديان حيث تتجمع الأمطار وتهب من رؤس الجبال إلى سفوحها^(١)
التربة وأوديتها المسهلة فتنبت الكلاً والمرعى وضروباً من النبات لا تحصى
ألوانها وأنواعها وزهورها .

وشعر الصبي اليافع بالبن الشاسع بين حياة الحضارة في بيوت « مكة »
وبين حياة البداوة الحسنة الوحشة . . ولعل أول شيء جال في نفسه ونال
منها بأكثر من حرمانه من بيت الأسرة ، هو الحرمان من رفقاء صباه وأتراب
طفولته . . يا لهم من رفقة أوفياء ما كادوا يسمعون خبر العزم على فراقه
« مكة » حتى أقبلوا إليه زرافات ووجداناً على بيت أبيه ، هذا يسأل وهذا

(١) سفع الجبل ما قرب منه إلى الأرض . والتربة ما يوجد عليها تراب صالح
لخيلة النبات عليه .

يبدى الأسف وذلك يمسح دموعاً تغلبه وتبدو في عينه وشلاً^(١) فيعاجله بالحو ، قبل أن ينحدر ويكون صورة من الضعف تشعر بالهزيمة التي لا يجبا الطفل ولا يرضى بها إلا على رغبه . . وذلك يغرق في سهوم وشروء وامتعاض أشبه بنوع من الاحتجاج لا قدرة على البوح به .

إن « عمر » الآن ليذكر لهم كل هذا الإخلاص ، وكل ما أتخفوه به من اعترافات بمزاياء وأخلاقه وما كان يسديه إليهم من عواطف ومساعدات على قدر طاقته . إنه هو الآن يذكر أنه حقاً طالما عاملهم بالإنصاف والحب ، وطالما دافع عن ضعفائهم أمام المعتدين وأنصف مظلومهم ممن يظلمه . وطالما ساعدهم على حل مشاكلهم من كل نوع ، وأسعدهم وأقر عيونهم ، وفرج ضيق أنفسهم بكل ما في طوقه ، إنه الآن بين القسم والشعاف^(٢) وبين الأحرار والكتبان محتبي^(٣) أحياناً بنزاعيه ويضطجع إلى صحرة صماء لا تعرف آلامه ، ويفرق في ذكريات هذه الأيام والليالي العذبة . . إنه يتخيل كم من ليلة عاد إلى بيت أبيه ممزق الثياب دامى الجلد من معارك خاضها ليؤدب بعض الصبية الوقحاء المغرورين ، إثر اعتدائهم على بعض الصبية من أصحابه أو ذوى قرابته

(١) انوشل : الماء القليل .

(٢) شعاف الجمال أعاليها . والأحرار مجامع النباتات والأشجار البرية القصيرة . والكتبان مرتفعات الرمال والأترية .

(٣) الاحتباء في الأصل الاسترخاء في الجلسة استناداً إلى شيء يلف حول الظهر والركبتين كشملة أو إزار مثلاً .

وكم من طعام له متواضع دعا إليه منهم بعض من كان يشعر أنهم بحاجة إليه ليشاظرهم تناوله بسرور ، دون أن يهتم ببعض ما فيه من نقص عن أطعمة المترفين ، لأن الحب والإخلاص ومرح الصبا يجعل كل ما في الحياة حلواً بالفا غاية الحسن والجمال . . . ويذكر الآن كم من أسية شجع فيها رفاقه بجرأته النادرة على تسلق سفوح الجبال حتى تصبح بيوت « مكة » تحت أنظارهم أشبه بأحجار وصخور حقيرة متناثرة هنا وهناك بلا شكل ولا نظام ، وحتى تتسنى لهم رؤية الهلال من وراء القمم الغربية وهم على سفوح الجبال الشرقية ينتظرون انحدار الشمس في بحر من الشفق الزعفراني البيج الألوان . ولظلماً جرأهم وكان أطولهم قامه ، على صفر سنه عن سن أكثرهم ، وأرشقهم عوداً وأشدهم أعصاباً ، على الوصول إلى أبواب الغيران التي كان يقصدها العباد والمتحئون^(١) للخلوة والعبادة . . . وكم جرحهم إلى مغارات السباع والوحش ليرصدوها بعد حين ، عند ما تخرج في غبشة الغروب معتمة^(٢) تبحث عن أرزاقها ، بعد جوع يوم طويل ، فيناغونها ويصفقون لها ويصفرون لها فلا ترد عليهم بأكثر من لفتات مختلصة ثم تولى مسرعة وتختفي في مثل لمح البصر . . . كل ذلك كان يداعب خياله الغض المرن المتوثب . في كل ساعة وحدة تتاح له ، وينال من نفسه ويحسم له أول واجب من أعباء الحياة أصبح حدلاً على عاتقه ،

(١) المتحئون الكثير العبادة .

(٢) المتعسر الباحث عن شيء تحت ستار الظلام .

بعد حياة طفولة لا حدود لها ولا قيود .

وتعصى الأيام والليالي تبعاً ، آخذاً بعضها بركاب بعض ، كسلسلة متتابعة الحلقات ، فيألف بطلنا حياته الجليدة ويتعود ما فيها من جد وصرامة ونشاط . ويشعر بقوة دافقة تنصب في عروقه وتسرى في عصبه ولحمه ودمه ، ويصبح جل طعامه أو كله من اللحم واللبن والسمن وما خف من نبات البر فتسرع قامته في الامتداد والرشاقة ، وتتوافر أعماله الشاقة القاسية فيصبح رياضياً بالطبيعة . بعيد ما بين المنكين يملأ منظره العين هبة من أول نظرة تلقى عليه .. ويلدع ذكائه ويتألق ويبدو نشاطه وسرعته في معالجة الأمور مع دقة وإصابة وإحكام ، فيسلم له مساعده الرعاة ويعترفون له بالزعامة والسيادة ويسيطر على أكثر رعاة الوديان بمزاياه التي كم أثارته فيهم إعجاباً لا حد له .

لقد أصبح خبيراً في حياة الحيوان ، ملدماً بطرق تربيتها ، عارفاً بآلامها وأمراضها وطرق علاجها وخير الوسائل لتنميتها من غذاء وشرب وحراسة وصيانة من عدوان الوحوش الضارية . . ومهر في ركوب الخيل وضروب القروسية حتى اشتهر عنه في البادية والحاضرة أنه كان يمسك أذنه اليمنى بيده اليمنى . ويمسك بيده اليسرى أذن فرسه ثم يثب وثبة واحدة فإذا هو معتدل الجلوس فوق ظهرها وكأنما فعل ذلك بقوة سحرية خارقة .

وهناك راح يروي غريزة حب الجمال في نفسه بما في البادية من ضروب الجمال الطبيعي الذي لا حد لأفئانه ولا عدد : هذه نجوم الليل

في القبة الزرقاء الصافية كأنها كرات صغيرة من اللآلئ رصعت بها قبة من اللازورد^(١) لا حد لعظمها ولا قياس . وهذه ظلال السماء تنعكس ليلاً على صفحات الغدران^(٢) الصافية القريبة من السفوح كأنما يجلو لها أن ترى صورتها البديعة على تلك المرايا العجيبة لتباهي بها القمم الشامخ التي تراحمها بصورها الرائعة على صفحات الماء الذي لا نهاية لصفائه ولا حد . . لقد طالما رأى « عمر » العبقري الخجوة في ضمير الزمان ، هو أيضاً ، صورته الرائعة وشبابه الغض في هذه الغدران الصافية وهو مملأ منها جرته ثم يحملها بيد واحدة كأنما يتباهى بقوة شبابه ، وإن كان ذلك لم يخطر له على بال . ولطالما متع نفسه بخضرة الكتيبان المخضوضرة المنمقة الوشي بيد الطبيعة الصانع^(٣) التي تمدها القدرة الإلهية بفنون تعجز عنها كل قوة غير قوتها الخارقة . . ثم نسائم العشي البليلة من قبل « تججد » تلك التي كانوا يسمونها الصفا وينظمون فيها أرق الأشعار وأبدعها ، ويرون فيها محرك الوجد والصبابة والحب ، ومهزة عواطف الشباب الناضر المتوثب . وحتى عواصف الليل تسوط^(٤) القمم الشامخ صارخة مزججة راعدة مبرقة تسوق السحب المحملة بالأمطار فتشر الخصب والحياة ، وتهز الآمال في صدور اليائسين ، كم كان لها في نفسه من جمال وأحاسيس لا يدركها

(١) اللازورد نوع من الأحجار الثمينة أزرق اللون .

(٢) الغدران مجتمعات الماء الراكدة التي نسميها أحياناً (البرك) .

(٣) الماهرة في الصنعة .

(٤) تضرعها بالرياح مثل الضرب بالسوط .

الوصف . أما صغار الحيوان بل وكل أفراد قطيعه فكانت أحب إليه من كل شيء في الدنيا . وكانت فرسه الكريمة تكاد تعدل عنده روحه التي بين جنبيه أو تزيد . . كانت قد أنست به ، وأنس بها ، فلا تطيق له فراقاً ولا ترفع عنها عن شخصه طرفة عين . . فإذا ما جاء الليل وجاءت نوبة هجوعه ، ناركأ القطيع في ذمة غيره من الرعاة ، تخيرت فرسه مكانها بالقرب منه ، وهجعت مطمئنة إلى وجوده . . وهل عجب منها كل هذا الحب وهو الذي يسقيها أقذاح اللبن العذب ، حليب وقته ، إذا شعر بأن نوبة سقيها قد تأخرت عن موعدها ، وراح العطش يضايقها ويضنيها ؟ لقد كانت أسرع انتباهاً وانتصاباً من الفهر كلما شعرت بما تحسبه خطراً على سيدها الذي يدللها بكل أنواع التدليل والتعزيز ، وكانت حاححتها تسبق نهوضها فبينه ذلك سيدها الذي لا ينام إلا ويده ممسكة بمقبض سيفه ، ليكون قريباً منه عند خطر مفاجيء . وطالما رأى إثر هبوبه من سنته وحشاً جائئماً ، على مرمى الحصاة منه ، كأنما يتحين فرصة للوثوب ، فإذا شام^(١) سلة الحسام وبرقت حديدته اختفى بأسرع من ومضة البرق . وكم من ليالٍ منحت فرسه الحبيبة صهوتها فطار بها كالسهم ، لينجد أحد الرعاة ، إثر صرخة من صرخاته ، فينقذه من غارة فتاك نزلوا به ليسلبوه ماله أو روحه . . أما مجالس السمر حول الشواء ، أو للندامة على الكؤوس المرعة ، فكانت من أحب المتع إلى نفسه الشاعرة . ولقد طالما اهتر لسماح

(١) شام الشيء أبصره .

القريظ ، وطرب لموسيقاه العذبة . ورتب لسانه بصوغه ونظمه . ووعى منه زاداً لا ينفد على الحياة . وكم تخير من عيون الشعر ما يدل على ذوق لا حد لرقته وصفائه ، فراح يتغنى به ويستشده غيره ليضرب بنغماته الحارة .

لقد أصبحت البادية قطعة من نفسه ، وسرى حبها مسرى دمه في عروقه فأصبح لا يريد بها بديلاً . على كثرة ما كان يرهقه أبوه به من تكاليف وأعمال تعجز فطاحل الرجال . إن أباه « الخطاب » كان غليظاً قاسياً لا يفتأ يخلق له المشاكل والمتاعب لأنه كان يريد ثراء سريعاً من وراء قطعانه لا يخلو من مبالغة في الطمع . . وكان الفتى العبقري على ذلك صبوراً وإوالده مطيعاً ولرغباته منفذاً ما وجد إلى ذلك سبيلاً . وكان يعجبه من أبيه أحياناً . بريق من الخنان الأبوي ، رغم غلظته وقسوته . إذ كان يسمح له في بعض الأوقات بالانحدار إلى « مكة » عش أمرته الحبيب ومسقط رأسه . وعلى الخصوص في أيام المواسم والأعياد فيستعيد بذلك ذكريات الصبا . وينعم برفقائه بعد أن ودعوا الصبا كما ودعه ، وراحوا يعدون في مختلف الأعمال كل فيما يسر له . . لقد كانوا يلتفتون حول « عمر » كلما جاء من البادية . كأهم نجوم في موكب القمر . فيطوفون معاً بكل مكان يجدون فيه متعة شبابهم الناضر . . وطالما لجأوا إليه يشكون من تغلب المصارعين الذين يأتون من البادية إلى سوق « عكاظ » فيتراون بشبان « مكة » في المصارعة هزائم موجعة . . وكان « عمر » لا يحب رجاءهم

فيه ، فكان يذهب إلى الحلقة وهو البصير بمصارعات البادية فما إن يتقدم إليه منهم مقدّم فيهم إلا وينازله بمثل مهارته وأعظم حتى يتعبه ثم يطويه طي قربة موشكة على النضوب ، ثم يلقيه إلى الأرض مصافحاً بوجهه الرغام^(١) ، بين تصفيق أصحابه وأحبابه الذين يرجعون به ، عموماً على أكتافهم ويطوفون به أحياء « مكة » ودروبها كما لو كان بطلا عاد من معركة فاصلة بعد سحق عدوه اللدود .

٤ - عمر في التجارة وحياة المجتمع

وهنا نرى الزمان قد دار دورات كافية لأن تتبدل الحياة ، وقلما وجدت حياة لا تتغير . ولعل رفقاء « عمر » الذين احترفوا التجارة ، وهو لا يزال في البادية ، كانوا أهم عامل في صرفه عن حياة البادية الحبيبة إلى نفسه . لعلهم شوقوه إلى آفاق أخرى أرحب وأوسع ، إذ يقصون على مسامعه أخبار « الشام » وطرقها وأسواقها وبساتينها وجناتها وما فيها من ثراء موفور ونعم زاخرة ومناظر ساحرة . ولعلهم استنشده شعر « عمرو بن كلثوم » التغلبي حتى أجروا لسانه بقوله في الحمر :

وكأساً قد شربت ببعليك^(٢) وأخرى في دمشق وقاصرينا

(١) الرغام: التراب .

(٢) بعليك ، ودمشق ، وقاصرين ثلاث من مدن الشام .

مشعشة^(١) كأنه الحُصَّ فيها إذا ما الماء خالطها سخينا
 صددت الكأس عنا « أم عمرو » وكان الكأس مجراها اليمينا
 وما شر الثلاثة « أم عمرو » بصاحبك الذي لا تصبحينا^(٢)

ولعل ، عمر ، قد اهتز لملك وطرب لأنه كان يتعشق الخمر الجيدة
 المعتقة في أديرة « الشام » وقلما كانت تفوته فرصة لمشاطرة رفقائه من
 الشبان في مجالسها في حانات « مكة » الشهيرة . ولعله رأى البون بعيداً بين
 شربها في دمشق وقاصرين وهي باردة كالثلج لا يخفف بردها إلا مزجها
 بماء سخين ، ومجلسها في غوطة^(٣) تتحدث الناس بجمالها في الأقطار وبين
 شربها فاترة في حانات « مكة » المتواضعة . لقد كان شاعراً عاشقاً لكل
 جمال ميالا إلى كل لون جديد وإلى كل أفق أرحب وأوسع وأعلى .

وعلى أى حال فقد تشوق « عمر » إلى حياة التجارة ، حرفة أهله
 ومهنة قومه . وراح يجوب الأقطار ، مثلهم ، ويربح لحياة أهله وبيته
 ما فيه خيرهم وسعادتهم ، كما كان يفعل تجار « مكة » . ورب ليلة عاد فيها
 إلى أسرته لينفض من أحمال جماله نعباً من طيبات « الشام » ومطاعمه
 وثماره التي لم تكن تراح لأهل « مكة » إلا مجلوبة بالقوافل ، مسيرة شهرين

(١) المشعشة الرقيقة الصافية . والحص الزعفران : أى كأنها لصفرتها تد مزجت

زعفران .

(٢) يقال : صبغه إذا سقاه الخمر في الصباح .

(٣) الغوطة مجموعة من البساتين في « دمشق » لا نظير لجمالها في الدنيا .

وطالما رآها « عمر » أيام صباه في بيوت « قريش » واشتهاها دون أن يطمع في الحصول عليها . لقد أصبحت أسرته هو أيضاً تلبس ملونات « الشام » الجميلة ونسيج « اليمن » الدقيق الرائع ، بعد عيش كان كله أو جله (١) صورة من البداوة الخشنة ، وراح بذلك سعيداً وفي عمله موفقاً .

وفي مجرى حياته الاجتماعية الجديدة كان يتقدم بخطى سريعة في سلم المجتمع ، ويصعد درجاً بعد درج ، ويتخطى قمة إلى قمة ، حتى آمنت « قريش » كلها بذرب لسانه وثبات جنانه ونظام منطقته وجدده وصرامته في الحق . . لقد ودع لهو الصبا وانطلاقه ومرحه وأحلامه التي يجب أن يتركها لغيره من الناشئين ، أصبح أهم شيء لديه أمر « قريش » والتفكير الدائم في كل ما يعود على المجتمع المكي بالخير والسعادة والسلام . . وولته « قريش » منصب السفارة وأسندت إليه السعي في حل مشاكلها الداخلية والخارجية فكان اليعسوب (٢) الذي لا يفتر ولا يهدأ ولا ينام عن طلب خير حتى يحققه .

كان مثالياً (٣) يعجب بكل قرشي أو مكّي يشتهر بالتعقل والرزانة والحكمة وحسن التدبير لحل المشاكل والخلافات . وكان يبغض ، كل البغض ، كل من يركب رأسه في الأمور وينسرع فيما يجز البغضاء والشحناء والفرقة وقطيعة الأرحام . ولكم كان يبدي حنقه وغيبه كلما جرى لسان

(١) جل الشيء أكثره .

(٢) اليعسوب : ذكر النحل .

(٣) المثال هو الذي لا يجب إلا معال الأمور .

بذكرى حرب « الفجار » التي انتهكت فيها حرمة الأشهر الحرم ، وبلغ من فجور من أشعلوا نارها أن حدث القتال داخل حدود الحرم المقدس .. لقد كان في أيامها لا يزال ابن سنوارة الأربعة ، ومع ذلك فإن ذكرها لا تزال تُتمضُّه وتشجيه فيلعبن بلسانه وقلبه كل من كان له فيها عاة أو سبب . لقد كانوا مجانين أولئك الذين دنسوا الحرم بخطاياهم وذنوبهم .

وكان يتأسى في أخلاقه وساوكة برجائين عظيمين من رجال « قريش » أولهما في نظره ذلك الشاب السمع المثالي « محمد » بن « عبد الله » بن « عبد المطلب » الذي كان المثل الأعلى للأدب والحلم والتسامح والعمل على السلام . . إنه لن ينسى لهذا الرجل الحكيم موقفه يوم اختلفت « قريش » وهي تبنى « الكعبة » : أى بيوتها ؟ يقوم بوضع الحجر في موضعه ويحوز بذلك الشرف على كل بيوتها . وكانت السيوف على وشك أن تسل لحرب مدمرة ، فاقترح ذلك الشاب الكريم أن يضعوا الحجر في رداء ثم يأخذ كل بطن من بطون « قريش » بطرف منه فيرفعوا الحجر إلى مكانه ويكون شرف رفعه للجميع . يا لها من مكرمة كانت نعمة من الله ومأثرة لا تنسى . أما الرجل الآخر فهو « أبو بكر بن أبي قحافة » ذلك الرجل الذى أثرى من أشرف الوجوه ، ولم يرض يوماً على قومه بغير ، ولم يسع إلا فى خيرهم وسلامهم وسعادتهم . إنه عالم « قريش » وحافظ أنسابها ومكارمها وتاريخها الأشم ، لبت « عمر » يصل يوماً إلى أن يكون له مثل ما لواحد من هذين الرجلين . إنه سيكون شرفاً عظيماً .

وكان يحب كل من يضيف إلى مفاخره « قريش » فخراً وإلى ثرائها ثراءً وإلى قوتها قوة . ولكم أعجب برجال « بنى مخزوم » أصحاب الأيادي البيضاء في بناء « الكعبة » بما أنفقوه من أموال طائلة على إقامتها وعمارتها وصيانتها . وكم أعجب برجال « بنى هاشم » أصحاب التاريخ المشرق الصفحات والأيادي البيضاء على « قريش » كلها . . وفي اشتغاله بهذه وتلك من المسائل لم يكن « عمر » يغفل تجارته والسعى لخير أسرته الخاصة . لقد كان مثله الأعلى في ذلك الزمان أن يحقق تلك المفاخر التي وصف بها « لبيد بن ربيعة » قومه في معلقته المشهورة إذ يقول :

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها
لا يطبعون^(١) ولا تبور فعالمهم إذ لا تميل مع الهوى أحلامها
وهم السعاة إذا العشيرة أفضت^(٢) وهم فوارسها وهم حكامها
وهم ربيع للمجاور فيهم^(٣) والمرملات^(٣) إذا تطاول عامها

٥ - ظهور الإسلام وموقف « عمر » منه

بينما كان المجتمع المكي يتابع حياته الرتيبة في جوار « البيت المقدس » بعيداً عن حروب الجاهلية وعدوانها وشحنائها ، فرحين بنجاتهم من

(١) لا يلحقهم الطبع بفتح الباء وهو الدنس . والأحلام هنا العقول .

(٢) أصابها أمر فظيع .

(٣) من فقدن أزواجهن .

جيش الفيل ، منذ أربعين عاماً ، ثم بانتهاء حرب الفجار إلى السلام والصلح ، منذ عشرين عاماً ، ثم « بتمام الكعبة » وعمارتها ، بعد السيل الذى هدمها ، منذ خمس سنوات ، وبينما هم فخورون بالكعبة التى هى متعلق آمالم ومعقد رجائهم ولواء فخرهم وشرفهم ، وبينما راحت كل بطن من « قريش » يفخرون بما أسهبوا به فى عمارتها ، وبينما راح « بنى مخزوم » يفخرون بأنه لولا جرأة « الوليد بن المغيرة » ما اجترأت « قريش » على هدمها ، ولاتأتى تجديدها اذخاف كل إنسان منهم على نفسه أن يمسا بفأس أو معول فتتزل به كارثة ، فتقدم « الوليد » وضرب فيها أول ضربة ، وبات الجميع يقولون : إن بات « الوليد » وأصبح بخير هدمنا وإن مسه سوء أمسكنا ، فأصبح غادياً بفأسه يهدم ، فهدم الناس ، وبينما « قريش » فى فرحهم ومرحهم ويمجى حياتهم السعيد إذا بهزة جديدة غير منتظرة تهب مجتمعهم هزاً رقيقاً أول الأمر ثم تزداد الهزة حتى تنزله فى أعماقه وتملأه بما لا عهد له به من قبل .

لقد بدأت الأخبار تسرى بأن « محمد بن عبد الله » قد جاء بدعوى عجيبة غريبة ما كان يخطر على بال أن تجيء من مثله . . . حقاً لقد استفاضت الأخبار منذ عهد غير بعيد بأنه قد غير من سلوكه المعتاد وأصبح يقصد إلى « غار حراء » ومعه زاده ، ليتحدث هناك اللبالي ذوات العدد ، ثم يرجع إلى عش زوجته « خديجة بنت خويلد » ، ثم يعود إلى الغار ثم إلى بيت زوجته ، دون أن يكون فى ذلك عجب أو منكر . . . إن « مكة »

منذ أن أسس عالمها « إبراهيم » أبو الأنبياء وبنى في واديهما « الكعبة » ، حتى هذه الساعة ، لم تخل من متحنت في غيرانها ، أو متعبد عند بيتها المقدس ، دون أن يهيج أحداً أو يهيجه أحد . ولكن واحداً منهم لم يدع مثل هذه الدعوى العجيبة التي جاء بها « محمد » .

وعند ما بدأت الألسن تلوذ في المجتمع المكي نبأ هذا الدين الجديد بدأ تيار من القلق والاندھاش ينساب في شعاب « مكة » ويغزو دورها ونواديها ومجالسها ، كما تبدأ نذر ميل عرم بسريان مسایل دقيقة من الماء في واد أهل بسكانه لتنذر أهله بخطر داهم ويوم عصيب . ولم يكن القوم في فورة الصدمة الأولى يشعرون بأكثر من عجب حدث ونبأ جديد وقع . فلا جديد منهم أكثر من التساؤل ، ولا عمل سوى ترديد كلام وخوض في حديث معاد يسع في أفواه الشبان ، كما يسع من أفواه الأحداث ويردده الرجال ، كما تعيده الصبايا والنواصف ^(١) والعجائز فجر كل يوم ومطلع شمسهِ ومشرق ضحاه وعند ظهيرة وقت أصيله وعند غروب شمسهِ ، وفي فحمة ليله الساجي بصدته العميق .

وأكثر ما كان يقذف به أخف القوم أحلاماً ، من السب والشتم ، هو تلك السخرية التي لا تعتبر عجباً من قوم جاهليين مغيظين من أجل دينهم وتقاليدهم . كانوا يقولون في سخرية واستهزاء : دين ابن « أبي كبشة » ^(٢)

(١) النواصف والنصف متوسطات العمر .

(٢) كان رجلاً فقيراً من أهل البادية ، وكان زوج حليلة مرضعة النبي (ص) .

ثم يتضحكون من الدين الحديد ومن ابن « أبي كبشة » الذي جاء به ما حدثه شيطانه وقرينه بهذا الهديان .

ولم يكن بطل هذه الصفحات « عمر » يدعاً من قومه ولا نمطاً آخر غير نمطهم . . . كان يخوض فيما يخوضون ، ويتحدث فيما يتحدثون . بل ربما كان ، بطبيعته الحساسة وإخلاصه العميق لأجداد قومه ، من أشدهم انزعاجاً وأوفرهم همّاً وأطولهم فكرة وسهوماً لهذه الأنباء المزعجة . بل رب ليلة يات فيها يرقب نجم الليل أيا ن يغرب ، وقد جافاه النوم وراح يحدث نفسه بما كان وما سيكون من أحداث . إن سنّه الآن لا تعدو ثمانية وعشرين عاماً هي سن الفتنة بالجمال والشباب ومن النشوة بأجداد القومية ومفاخر العشيرة . سن الإدلال بالقوة والفتوة والتسرع إلى الظهور بمظهر القدرة على الانتقام من كل من تحدثه نفسه بأن يمسه تقاليد « قريش » أو يبذل من أوضاع حياتها ومقدساتها المصونة . . . لكن ممن ينتقم ؟ وكيف ينتقم ؟ ومتى ينتقم ؟ لو أن ذلك الذي أحدث هذا الحدث ، في ثنايا القرية المنكسرة وفي خلال « قريش » ذات المجد والجاه العريض ، كان غريباً عنها وخارجياً عن صريح نسبها ، وفرعاً من غير دوحها لقصده إليه أينما كان من الأرض فأخذ بعقبه ورفناه وعصره عصرة تدخل أعلاه في أسفله . أو لجره بعقبه ثم صعد به إلى قمة جبل فالتى به في مكان سحيق ، أو شطرده بسيفه شطرين لا يمسه أحدهما الآخر . أو لأوقده له ناراً يشوبه عليها كد كان يشوى ذبائحهم وصيده مع الرعاة خلف قطيع والده « الخيطاب » . . .

لكن يا للصاب ويا للشقاء ويا للفتنة ! إن الذى فعل هذا بقريش ليس إلا أحد أبنائها ومن ضئضى^(١) الشرف منها . . إنه من « بنى هاشم » أصحاب الشرف الأئتم من دوحتها وبناة الركن المتيف من ساحتها . . يا عجباً لهذا الخارج على قومه العاق لأجداد أهله . أو قد نسى أن جده ، « هاشم » قد جاء يوماً بجلب ماله فجلب به طعاماً من « الشام » لينقذ « مكة » من مجاعة مهلكة ، ثم راح يشبع أهلها ثريداً من لباب البر وأوراق الأسنة ولحماً تتدفق به الجفان^(٢) حتى ذهب عنها الجوع ؟ بل أبى كرمه الخائى إلا أن يطعم وحشها وطيرها ، بإلقاء الطعام على رهوس الجبال . أئذه أجداد تنسى ؟ وإذا كان قد نسى أجداد جده « هاشم » على عظمها ، فكيف ينسى تاريخه هو نفسه ؟ ألم تكن « قريش » كلها على وشك التغانى بالحرب أيام بناء « الكعبة » فكان هو المحكم الذى ارتضى الجميع حكمه ، وحل الوفاق محل الخلاف وزال الخطر وحل الأمن والسلام ؟ وإيم الله لولا أن لهذا الرجل مكانته من نفسه بسبب ماضيه الأغر وخلائقه التى سارت بمحاسنها الركبان ، فى كل واد ، لأقمت له رصداً على كل طريق يسلكه ثم تركته يسقى كجزور يتشحط^(٣) فى دمه ... إنى والله لأعلم ، أكثر من « مكة » كلها ، كيف هو ؟ وأين هو ؟ وعلام يصبح ؟ وعلام

(١) للضئضى . الأصل .

(٢) الجفان القصاع للكبيرة .

(٣) يهتز ويضطرب .

يمسى ؟ لكن أى خير يرجى لقريش وبطحائها^(١) إذا أنا أقدمت على أمر كهذا ؟ أتعد « قريش » بعد ذلك ساعة من ليل أو نهار ؟ أيعمر مجلس بعد ذلك بالسمر الخلو أو يغص ناد بأهله على زفن^(٢) الجوازي وغناء القيان وارتشاف الكؤوس المترعة ؟ يا للمخطب ، يومئذ ، على « قريش » كلها بين غالب ومغلوب وقاتل ومقتول . . أ أمضى يوماً لأحسم الداء الذى بدأ هذا الرجل ينشر عدواه قبل أن يستفحل ويقضى على السلام ، فى هذا الوادى السعيد ، القضاء المبرم ؟ لا . . إن هذا الذى أتسرع به الآن ما يزال ظناً مرجحاً^(٣) وحديث ليل لم ينجل فجره . أما ما سأفعله . . لو فعلت الآن ، فهو البلاء المعجل والمخطب الخالق . . إن من الحزم إذن أن أتريث لأرى ما وراء هذا الليل البهيم والمخطب العظيم وأن أنتظر لأرى رأى المشيخة من « قريش » ذات الأحلام الراجحة والآراء الناصحة الواضحة .

وراح الفتى العبقري ينتظر ما يأتى به القدر ، وينهه^(٤) نفسه عن التسرع ، آخذاً على زمام غرائزه ونوازع نفسه بيد من حديد ، مكتفياً بتتبع أخبار هذا الدين الجديد وأخبار الصابئين^(٥) الذين يتركون دينهم

(١) البطحاء مكان من « مكة » يمكنه أشرف « قريش » .

(٢) الزفن الرقص . والقيان المنقيات .

(٣) رجم بالنيب .

(٤) ينهى ويمنع .

(٥) الصابئ من يبدل دينه بدين غيره .

ليدخلوا حظيرته . إن من السهل عليه إشباع غريزة الانتقام في نفسه بايذائهم والتكثير بكل من يقع في يده منهم ، عسى أن يكون في ذلك ما يردع سواهم عن الصبوء . إنهم يخشونه أشد خشية ويدوبون كلما رأوا خياله واو على بعد . إنهم ضعفاء لا ضير على « قريش » من أن يصبأوا أو يبقوا على إخلاصهم لدينهم الموروث . إنه هو أحياناً يتذكر أنه منذ كل عقلة لم يقتنع يوماً بمعنى هذه العبادة وتأليه الأصنام . ولقد سبق أن عباداً متحشّين بمكة عبدوا الله على طريقتهم التي تحلوا لهم ، دون أن يعرفوا بالأصنام وكان منهم « زيد بن عمرو بن نفيل » وهو ابن عم « عمر » نفسه . إن « عمر » نفسه يذكر أنه لم يكن يحفل بهذه الأصنام بقدر ما كان يحفل بإبل أبيه « الخطاب » وشائه الراعية في السفوح والوديان . . لم يسهر لها ليلة كما سهر للقطيع مئاة الليالي ، مهموماً بأمرها ، يعد نجوم السماء تنظراً^(١) للفجر ليأمن على قطيعه عدوان الوحش . إنه لم يغش باحة^(٢) هذه الأصنام إلا مسوقاً بمحض التقليد وبحب الاستطلاع عند ما كان في طراوة الصبا ، وبقايا سذاجة الطفولة . أما عند ما بدأ يدخل في دور الشباب الناضج ويستكمل قوة العقل ، فكم كان يسأل نفسه ما هذه الأصنام المنحوتة المصنوعة ؟ وما الذي يمكن أن تقدمه لعبادها من نفع أو تأخذهم به من ضرر ؟ إنه لا يمقت « محمداً » وأصحابه ،

(١) التنظر : الانتظار .

(٢) الباحة : الساحة .

إذن ، لمجرد الصبوه . ولا حباً في الأصنام ولا حفاظاً^(١) على دينها وسلطانها . إن أخشى ما كان يخشاه من وراء صبوتهم هو إحداث الفرقة والتقسام والعداوة بين بطون « قريش » وبيوتها . . فليتنظر ، إذن ، ما سيسفر عنه الفجر إن كان لهذه الفتنة من فاجر .

وراح الفتى العبقري يقسم جهد فكره وطاقة أعصابه بين شئون بيته ومطالب حياته ، وبين همومه المتكاثرة لهذا الحدث الطارئ ، وينفس عن نفسه من ثورتها ، بتعقب أخبار الصابئين وتعذيب من يقع منهم في يده العذاب الذى يردع كل من تحدثه نفسه بالصبوه .

ولكن أمراً آخر بدأ يداعب فكرته ويزحم أنفاسه في صدره : إنه يجد كل من صبأ ودخل الدين الحديد لا يعود أبداً الدهر إلى دينه مرة أخرى ، بل يظل ثابتاً على دينه الحديد لا يتحول ، رغم هذا العذاب الذى يتزل بهم . ولقد أبلغ منه العجب كل مبلغ ، بل لقد أسهر عينه ، وقرح كبده ، خبر إسلام رجل « قريش » « أبى بكر » بن « أبى قحافة » الذى كان من رجال الذروة العليا في « قريش » . إنه عالم أنسابها وراوية تاريخها وآدابها ومن أبعدها رجالاتها شهرة بين قبائل العرب فضلاً عن ثرائه وسعة نفوذه . . إن الخطر إذن ، قد بدأ يقترب : لقد كنا نحدث أنفسنا بأن إسلام الضعفاء أنفسهم لتأثير « محمد » أمر غير ذى خطر . . فكيف اليوم بصبوه رجل كان عندي في المكان الأول ، وكل الناس وراءه .

(١) الحفاظ: شدة المحافظة على الشيء .

هذه بلاشك فاتحة الخطر الأكبر .. أأذهب إلى « أبي بكر » هذا الصابئ الخطير لأقرنه بمحمد هذا الذي فتنه واستولى عليه ، وأريح الناس منهما بسيفي هذا ؟ لكن كيف ؟ أليس الفتق يكون اليوم أوسع ولا تكون لواقع فيه حيلة بعد ؟ .. بالفتنة العمياء الصماء .. وايم الله ، لو أن عشرة من الأقوياء وراء « أبي بكر » دخلوا إلى حضيرة « محمد » لبانت « قريش » على خطر التعبئة للحرب يواقف بعضها بعضاً ، ويزاحف^(١) الأبناء آباءهم والإخوة إخوتهم . ويا سوء مصيرك يا « عمر » لو قدر لك أن ترى بعينك ذلك اليوم الأنكد .

٦ - إسلام عمر

لم يكن المسلمون ، في شعاب « مكة » ودروبها ، يكرهون كلمة كما يكرهون اسم « عمر بن الخطاب » ، ولا يفرقون^(٢) من شيطان في عتمة الليل ، كما يفرقون من ظل « عمر » في رابعة النهار . وكان أشقاهم حظاً من تجده به ساعة نحس فيذوق منه أهول الأكبر .

واتفق أن خرج « عمر » في يوم شديد الحر ، بعد أن مل التريث والانتظار ، يشق دروب « مكة » مخترطاً سيفه ، والحنق قد بلغ منه منتهاه ، فلقبه رجل قرشي من « بني زهرة » فقال له : إلى أين ؟ إلى أين

(١) يزحف بعضهم إل بعض في الحرب .

(٢) الفرق : الخوف .

يا عمر؟ فقال: إلى دار «ابن الأرقم»؛ حيث يجتبي «محمد» ذلك الصباي الذي فرق «قريشاً» لأقتله. . فقال له الزهري: هل أدلك على ما هو أهم لك وأعظم؟ . . إن هذا الأمر قد دخل بيتك. . فارتاع «عمر» وقال: وكيف ذلك؟ . . قال الزهري: إن أختك وختنتك^(١) قد صبوا ودخلا في الدين الجديد. . وهنا خيل لعمر أن الدنيا تنهار من حوله. . دون أن يدري ما يأخذ وما يدع. . وبحركة لا شعورية وجد نفسه يسير صوب بيت أخته «فاطمة» حتى دفع الباب في وجه ختنه الذي خرج ليفتح له بعد طرق شديد، وهجم «عمر» على الحجر دون تمهل فلم يجد سوى أخته ويجانبها صحيفة فيها شيء من القرآن كأنها يتلوانه، وهو لا يزال على الباب يسمع هينمة التلاوة، ولا يدري سرها. . وعرف «عمر» من الصحيفة أن أخته وختنته قد أسلدا حقاً، فألقى بزواج أخته إلى الأرض وراح يضربه ضرباً شديداً، فتدخلت أخته «فاطمة» لتدافع عن زوجها فضربها «عمر» في جبهتها بظهر يده ضربة سال لها دمها على وجهها، فصرخت وراحت تعلن إسلامها على مسعاه وتقول: افعل بنا يا ابن «الخطاب» ما أنت فاعل. فوالله لن نرجع عما دخلنا فيه من دين «محمد».

وذهل «عمر» لشجاعة أخته وإخلاصها لزوجها وثباتها العجيب على دينها. وهدأ لحظة فرأى دمها الزكي وقد صبغ وجهها، دون ذنب صنعته.

(١) الختن: زوج الأخت أو البنت.

وهنا جلس في دهشة ووجوم، وأطرق نحو الأرض يلهث غضباً، ولا يدري أعلى هؤلاء المساكين يغضب أم على نفسه التي دفعته إلى هذه الجناية المنكرة؟ وراح ضميره يؤنبه، وشعر بأحاسيس الندم والعطف على أخته وعلى زوجها الذي هو ابن عمه وشطر دمه ونسبه. وبدا له أن يتأمل ما في الصحيفة التي كانت ملقاة على الأرض بجانب أخته فإذا هو يقرأ فيها:

(طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلاء ، الرحمن على العرش استوى ، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) . . لم يكذب « عمر » يتم قراءة هذه الآيات: إلا وقد سرت فيه رعدة تتمشى في أعصابه وتهز كيانه وتحماه إلى عالم من السمو لا عهد له به من قبل . . وهنا راح يفكر في صدمت ويستعيد بخياله كل ما مر به من حياته : طفولته وصباه ، وقسوة أبيه « الخطاب » ، وما كان يأتي منه من آلام لم يكن يرفه عنه من قسوتها إلا حنان أخته تلك التي يسيل دمها بيده الأثيمة المنكرة للجميل ! . بيده التي طالما التقطتها أخته هذه بين يديها الناعمتين كلما أزمع سفيراً أو عاد من سفر ، وراحت تشبعها تقييلاً وتهزها هز الشوق والحنان . ثم تملأها بطيبات ما كان يتاح لها من شهي الطعام وعذب الشراب . وعلى الخصوص شراب النبيذ الذي كان أحب شيء إلى نفسه لقد كانت تبرده له بطرق لا تتأني إلا لمن لطف ذوقه ، ورق حسه ،

وأحب وأخلص بكل ما للحب من قوة . . أخته هذه التي ما لمحت على ثيابه غبار سفر إلا نفضته ولا وسخاً منه إلا غسلته ، وتركت ثيابه ترف حسناً ونظافة وطيباً . . أمثل « فاطمة » يجازى بمثل هذه القضاة ؟ ثم أتحدث الناس عن « عمر » بعقوق القرابة وقطع الأرحام وظلم الضعفاء ، وهو الذى كان طوال حياته يكره الظلم كما يكره الموت ويبدل في دفعه كل ما يملك من جهد ؟ يا له من ضلال مبين لا يدري كيف وقع فيه .

ثم من أجل من يرتكب كل هذا الوزر ؟ أمن أجل الأصنام وإرضاء لعبادها الجهلاء ؟ يا لعنة الله على الأصنام وعلى عبّادها الجهلاء ما ذر قرن الشمس ، وما دارت بمكة جبالها السماء . . لم لم تقل لنا الأصنام كلاماً عذباً مثل هذا القرآن الذى أضرب من أجله أختى وخنثى ؟ إنه لا الأصنام ولا عبّادها الجهلاء ولا كل من طلعت عليهم الشمس من فصحاء العرب يقدرون على شيء من هذا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وفجأة نفص « عمر » بدنه الرائع الطول فلم يرياه إلا واقفاً يسألهما كيف يتيسر لقاء « محمد » ؟ فكادا يطيران فرحاً بما بدا لهما من أمره . وسمع من وراء ستار كان في زاوية من الحجرة حنّاف « خباب بن الأرت » ذلك القين ^(١) المسكين الذى كان من أسرع الناس إسلاماً وأحفظهم للقرآن . والذى كان يعلم « سعيد بن زيد » وزوجته « فاطمة » كل ما يحفظ من القرآن آية فآية . وكان قد اختبأ وراء الستار لما طرق « عمر »

الباب طرقاتاً مزعجاً لأنه توقع شراً وراء طرق لم يسمع من قبل مثله شدة وغنفاً . خرج « خباب » هائفاً مكبراً مبشراً « عمر » بأنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك « عمر بن الخطاب » أو بأبي جهل « عمر بن هشام » .^(١) وقال : أرجو يا « عمر » أن تكون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم قد استجيبت فيك .

خرج « عمر » من فوره يقصد إلى دار « ابن الأرقم » في أسفل « الصفا »^(٢) حتى انتهى إلى الباب فطرقه ، والمسلمون محتبئون في داخلها . وذهب بعض أهل الدار فنظر من خلال الباب فعرف « عمر » وعاد مرعوباً يندرم بأن « عمر » على الباب . فراحوا يستعدون لأمر عظيم . ويأتمرون بقتله إذا بدأهم بالقتال ، مهما كان وراء ذلك من أخطار . ولكن النبي السمع الحليم أمرهم أن يفتحوا له . ودخل « عمر » قاصداً إلى الرسول الكريم وجلس بين يديه في خشوع وأدب جم وتلا كلمة الشهادة . وكبر المسلمون تكبيرة سمعت في الدروب المجاورة لدار « ابن الأرقم » . وكان ذلك أول إعلان لصوت الإسلام الذي ظل نحو ثمان سنوات يعاني الكبت والاضطهاد كأنه في دار غربة .

وبعد خوض مرح فكه في بعض الشؤون نظر « عمر » إلى النبي صلى

(١) كان من أكبر زعماء « قريش » وهو من بيت « بنى مخزوم » أحوال

« عمر بن الخطاب » .

(٢) مكان قرب الكعبة .

الله عليه وسلم ، وقال له : يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ قال : بلى . . . قال « عمر » فقيم الاختفاء ؟ فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في صفتين على أحدهما « عمر » وعلى الآخر « حذرة بن عبد المطلب » عم النبي (ص) وساروا حتى انتهوا إلى « الكعبة » فطافوا وصلوا بالمسجد الحرام وأظهروا إسلامهم لا يحشون غير ربهم أحداً . أما من كانوا هناك من المشركين فقد أخذوا بغم لا طاقة لهم به ، وعرفت في وجوههم غيرة من الغيظ لا تخفى على أحد . وبإسلام « عمر » تم عدد المسلمين أربعين وإن كانوا بإسلام « عمر » قد أصبحوا ألفاً أو يزيدون . ولقبه النبي (ص) بالفاروق . وهو أول لقب من نوعه حملة رجل في الإسلام .

وما يعد من عجب الزمان أنه بينما كان الناس يستخفون بإسلامهم ، خوف ما ينزل بهم من بطش المشركين وعذابهم ، نجد « عمر » يأبى إلا أن يعلن إسلامه في طول « مكة » وعرضها . ولم يكفه أن راح هو يعلن به كل من يقابله ، بل راح يبحث عن إخباري متخصص في الإعلان حتى وفق إلى أشهر رجل برع في هذه الوظيفة فأخبره خبر إسلامه . فإذا الرجل ينطلق صارخاً في كل ملاء^(١) من أملاء المشركين رافعاً عقبرته : صبا « عمر بن الخطاب » صبا « عمر بن الخطاب » . وإذا « مكة » ، على غير العادة في إسلام كل من أسلم ، تنقلب بعد هدوئها إلى شبه ثورة عارمة كأنما تريد أن تشعل حرباً عواناً لا تبق ولا تذر . . . كانت الجموع الثائرة المحنونة تنطلق صارخة : أين الصائبي « عمر بن الخطاب » ؟ أين

(١) الملاء الجماعة من كبار القوم .

الصائى « عمر بن الخطاب » ؟ . . . واتفق أن لقيهم « عمر » فى طريقه يهدر كالفتح الناثر فعرف ما يقصدون، وصرخ فيهم معلناً إسلامه وهجم عليهم وأحاطوا به فراح يضرب فيهم خبط عشواء فيكب هذ على وجهه ، وىلبى ذاك على ظهره ، وهم ينهالون عليه من كل حدب فوجاً بعد فوج حتى أعيأ وجلس لا هتأ يلبقى ضرباتهم بذراعيه الطويلتين . وإذا بالعاص ابن « وائل »^(١) المهيمى وهو من هو فى « قريش » جاهماً ونفوذاً ، يقبل نحو الناس : وقد سأل بهم الوادى ، فيقول لهم : ما وراءكم ؟ فيقولون : نريد قتل هذا الصائى « عمر بن الخطاب » فيقول لهم : أو تحبون قومه « بنى عدى » سيتركونكم بذلك ؟ ويفيق الناس من ثورتهم على صوت « العاص » وهو يقول لهم : انصرفوا فما ذاك لكم بسبيل . ويصل النبأ إلى أحد أحوال « عمر » من « بنى مخزوم » أصحاب الجاه والنفوذ فيعلن جواره لعمر . . .

وهنا نرى « مكة » وقد هدأت ثورتها على مضض فى حلاقيم المشركين وغيظ يأكل صدورهم . وتتعمد المجالس والنوادى حول ذلك الحدث المثير ، وحول ذلك الجوار الحاطى الذى ظفر به « عمر » من أحد أحواله من زعماء المشركين . . . ويمشى « عمر » مختالاً فى طرق « مكة » ودروبها ينظر المشركون إليه ، فى حصرات وغيظ محنم ، ويشير إليه الصبيان بأيديهم من بعيد ، وتختلس النساء والعدارى النظر إليه من وراء أبوابهن وكوى^(٢)

(١) هو والد البطل المير « عمرو بن العاص » .

(٢) الكوى : المفاذ الضيقة .

مساكنهن ومصاريح بيوتهن ، كأنما هو عجب جاء من عالم آخر لا عهد للناس به من قبل . . . وكم من عجوز مشرقة كانت الغيرة تأكل قلبها فلا تجد مخفناً لغيظها أكثر من أن تقول : عجباً للعالم ! لقد جاء من الزمان عجبه الأكبر ، وأصبح ابن « حتمة » هم « مكة » المقيم المقعد . ويأتري ماذا عند القدر بعد ذلك من عجائب ؟ .

وتمر على هذا الحدث أيام وليال ، والفتي العبقري لا يهبجه أحد ولا يتعرض له بالأذى متعرض . بينما لا يكاد يوم يمضي دون أن ينزل الأذى ألواناً بضعاف المسالمين من الأرقاء والفقراء ومن لا قبيل لهم من الشرفاء بحميمهم ويجيرهم .

ويعجب الفتي العجيب لذلك كله . . كيف يضرب غيره ، كل يوم وكل وقت ، بينما هو لا يضرب ولا يهاج ؟ .. وراحت أذنه تلتقط من حوله الهدس أو الجهر بأنه لا بحميه من الأذى إلا جوار أخواله « بنى محزوم » . وتمتعض نفس الفتي ، ويرى في هذه الحماية ما لا يشرفه ولا يرفع رأسه . . . وراح يقول لنفسه : إذن أين التضحية في مسيل الدين والمبدأ ؟ وأين الجهاد ؟ وأين المحك الذي يظهر الأصالة من الزيف والإخلاص من النفاق ؟ ومن يدري نفسي ويدري الناس بأني لست منافقاً أتقرب إلى جماعة المسلمين لأخذ بينهم مكاناً ممتازاً ، ومن ناحية أخرى يبسط على حمايته أحد أحوالي المشركين الأنجاس المناكيد ؟ أمن الرجولة والنجدة أن أعود من أعمالى وأشغالى فأسمع عن ضربوا وركلوا وعذبوا ، من الضعفاء

والمساكين من جماعتي ، ثم أرقد في مضجع امرأة أحلم بالأمن والنجاة والسلامة وحدي ، ثم أدعى بعد أني رجل لا يزال في فتوة الشباب وحميآه؟ أين أيام الشقاء والمخاطرة في البادية؟ وأين الزعامة التي كان يشهد لي بها هناك أجداع الرعاة من قريب وبعيد؟ ولماذا كنت إذن ، أتتهم على « محمد » وعلى أصحابه وأتابعهم وأضيق عليهم في كل مكان وأنا على شركي وضلالي؟ لماذا وأنا الآن مسلم وسط جماعة مضطهدة يعجبني السلام ، ويطيب لي المهجع ، وتنعم عيني بالنوم كأني لست منهم ولا نسب يحدني بهم؟ أكان قصاراي^(١) أن أظاهر بالشجاعة والجرأة على المسلمين الضعفاء لأن ورائي من يحديني من جماعتي المشتركة ويشجعني على اضطهاد المساكين الذين لم ينجوا ذنباً أكثر من إيمان بربهم وحرص على عقيدتهم؟ لا.. لن أرضى بهذا الحوار من خالي . وليذهب هو وجواره إلى الجحيم . . لماذا لم يمنع هذا الحوار لغيري ممن يضطهدون كل يوم وكل صباح وكل عشي؟ لشد ما أصبح يؤرقني هذا الحوار ويذود النوم عن عيني . . ولأذهبن إلى خالي فأرد عليه جواره حتى أراني أضرب كما يضرب غيري ، واضطهد كما يضطهد كل فرد من جماعتي ، وإلا فلست « عمر » الذي عرفته في الماضي وأصبحت الآن أنكره ولا أومن به .

ويشهر الفتى العبقري فرصة فيذهب إلى خاله ويطلب منه استرداد جواره . . وتأخذ خاله عاطفة الخوولة ونعرة التعصب للدم والنسب فيأبى

(١) أكان آخر جهدي .

رد الجوار . . ولا يجد « عمر » سبيلا إلا أن يغلظ لخاله في القول ويصر على رد جواره إليه ، فيسترد الرجل جواره ويعود « عمر » فرحاً بأنه سيُضرب ويضرب حتى يظهر الله الإسلام .

ويعود « عمر » في طريقه نحو جماعته العزيزة عليه ، وهو يحلم بمشاطرتهم في الضراء قبل السراء . . ويقول لنفسه : الآن يطيب لى أن أحصل لقب « الفاروق » وأنا قرير العين . ولن أكون « الفاروق » إذا تركت للشركيين عيناً تقر بنوم إلا أن يخلدوا بيننا وبين ربنا نعبده كما يشاء أن نعبده ، ونطيعه كما يشاء أن نطيعه ، ونضحى في سبيله بكل ما نملك من نفس ومال ونشب . ويذاع الخبر العجيب في ربوع « مكة » ودورها فيفرح له المشركون لأن « عمر » أصبح يواجههم وحده ، ويتعجب له المسلمون لأنه بحق مما يدعو إلى العجب . لقد كانت الحماية مبسوسة على « عمر » ، وكان الأمن فرصة متاحة له ، فوق نعمة الإسلام التي حظى بها . ولكنه أبى إلا أن يتحمل الأذى كما يتحمله أمثاله . فما أعجب أمره وما أغر به !

٧ - هجرة « عمر » إلى « يثرب »

وإذا كان الإسلام قد عز في « مكة » بإسلام « عمر » ، وبدأ الصراع العلني بين الحق والباطل ، بعد أن كان الأمر عدواناً من جانب

المشركين ، وصبراً على الأذى من جانب المؤمنين ، دون اجترأ منهم على رد الأذى بمثله ، إلا بعد إسلام هذا الشاب المناضل ، فإن القوة في الحقيقة ، كانت لا تزال في جانب أنصار الشرك وأعوانه . وماذا تغني جرأة « عمر » وشجاعته . وعدد المؤمنين ما كان يزيد عن أربعين يوم إسلامه ؟ وماذا عسى يبلغ جهد أربعين أو خمسين أمام جحافل الشرك التي تحيط بهم وتعد بالآلاف من « قريش » وحدها غير ما يحاصروهم في القبائل الأخرى من عشرات الألوف ، من مساعير الحرب وأنصار الظلم والطغيان ، وأعداء الدين الجديد ؟ لقد كان الأذى لا يزال على شدته ، وميزان الصراع لا يزال غير متعادل الكفتين . إن كل ما جد في الأمر هو أن حزب المؤمنين قد قوى ، إلى حد ما ، واجترأ على إعلان دينه وعقيدته ، وأصبح يرد اللطمة بمثلها ، ويدفع الأذى بأذى مثله ، عند ما يكون المعتدى عليه قريباً من جماعة المسلمين ليتاح له من يأخذ بناصره ، أو عند ما يكون مؤمناً قوياً مثل « عمر » الذي لا يوقر ولا يهاب معتدياً ، مهما كانت مكانته .

لذا لم يكن من الهجرة بدءاً لكي يجد المسلمون متنفساً لحريتهم وعقيدتهم بعيداً عن دار البغي والعدوان . ولهذا فكروا ، أول الأمر ، في الهجرة إلى الحبشة فوجدوا فيها جواراً طيباً واستقبالا حسناً من ملكها العظيم وشعبها الكريم . ولكن الهجرة إليها في الحقيقة ، لم تكن أكثر من مطاولة ومصابرة ومحاولة للثبات في وجه الظلم والطغيان ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . وكيف يكون للهجرة ثمراتها في بلد تختلف عن بلد أصحاب الدعوة الجديدة

في الدين واللغة ، وتبعد عنها ، ويفصلها عنها بحر خضم لم يتعود العرب ممارسته فضلا عن أسباب أخرى ليست من مهمتنا في هذه الصفحات المحدودة ؟
لذا بدأ المؤمنون يتجهون إلى تركيز هجرتهم في « يثرب » تلك المدينة الهادئة العربية التي تقع على الجادة^(١) الواضحة ما بين « مكة » و « الشام » ولها ميزة التحكم في طريق قوافل « مكة » ذات الأحمال الثمينة والثروات الضخمة . فضلا عن أنها دار « الأوس » و « الخزرج » ومن أسلم منهما على يد النبي (ص) في بيعة العقبة الشهيرة . وأنها دار « بني النجار » أخوال « عبد المطلب » جد النبي (ص) ، فلها أكثر من ميزة على غيرها من البلاد ما قرب منها وما بعد .

من أجل هذا كان المؤمنون يقصدون إليها تباعاً ، متسرين تحت طيلسان الليل البهيم ، أو مظهرين وجهة أخرى غيرها حتى إذا قاربوها غيروا وجهتهم إليها في خفة وحنر . . . والويل كل الويل لمن كان يقع في أيدي المشركين ، وهو لا يزال في مرحلة الاستعداد للهجرة ، أو في طريقه إلى دارها ، حيث كان يجر جراً ، ليرسف في الأغلال والقيود ويلدق من العذاب أشنع ما يتصور .

أما « عمر » فأبى له حميته وعزته وشجاعته ، وأبى له بلاؤه في سبيل دينه أن يخرج مستخفياً كما كان يفعل غيره ، أو يعرض بطريق ثم يقصد غيرها . . . إنه على الضد من ذلك ، أعد عدته بعد أن شاور

(١) الجادة : الطريق الواصل .

النبي (ص) ودبر معه الخطة ليلحق بجماعة المسلمين هناك فيكون لهم قوة ومدداً ليس مثله مدد ، حتى يؤذن للرسول (ص) بالهجرة فيلحق بهم هناك .

أعد « عمر » عدته ، وجهز راحته وزاده ، ولبس ثيابه ، وتقلد سيفه ، وتكعب قوسه ، كما لو كان ذاهباً إلى ميدان حرب قريب الساحة . ثم مال إلى « الكعبة » فطاف بها سبعا . ثم صلى في مسجدتها صلاة متمكن مطمئن . ثم طاف بخلق « الكعبة » واحدة واحدة يستلمها بيده وهو إليها مشوق وعلى فراقها مرغم . ثم لاحت منه التفاتة فرأى ملأ من « قریش » جالسين هناك فنظر إليهم وقال : شامت الوجوه . لا يرغم الله إلا هذه المعاطس^(١) . من أراد منكم أن تنكله أمه^(٢) أو ييتم ولده أو ترمل زوجته فليلقني خلف هذا الوادي . . ثم تركهم ومضى وكأنما غشيت انقوم غاشية فلم يتبعه أحد سوى جماعة من ضعفاء المؤمنين فوقف معهم وعلمهم وأرشدهم وسار في طريقه .

والآن ورغم ما بيننا وبين زمانه ومكانه من أبعاد محيقة نستطيع أن نبعث بعين الخيال لكي نرى شاباً جلدأ طوالا بعيد ما بين المنكيين قد لبس ثياب السفر النظيفة الرائعة ، ودجج نفسه بالسلاح ، وراح يتأرجح فوق راحلته وعلى وجهه الأبيض المشرب حذرة آثار هموم لا يعرف

(١) أي لن يذلا امة إلا أنرفكم .

(٢) التكل فقد الأم ولدا بالمرت .

مداها ولا تدرك مكانها ومفاورها من صدره البعيد الأغوار . كان لا يفتأ يتلفت حوله في كل جهة ويرى بنظراته الشاردة إلى كل ما حوله من كائنات ، كأنما راحت نفسه تتشبث بهذا الثرى الذى كان أول أرض مس جلده تراها الحبيب ، وبهذا الضياء الرائع الذى كان أول ضياء داعب حدقيه ، وبهذه الجبال الشامخة التى تبهر عظمها كل ناظر ، وبهذه النباتات البرية من إذخر وجليل^(١) وأنواع أخرى كم زهت خضرتها لعينيه ورفق رفيف الجمال لناظريه ، وبهذه البيوت التى طالما دلف إليها فى طفولته ، غير هباب ولا وجل ، فرأى فيها لداته وأترابه وكلم فيها صفاراً وكباراً ورجالا ونساء وعذارى كروائع النجوم ، وأنس بما فيها من نشاط وحياة . وبهذه الطرق والدروب التى درج فيها قبل أن يعرف لم يدرج ؟ وأين يدرج ؟ وإلى أين تنهى خطاه ؟ . لقد تقسست نفسه الآن وتفصلت روحه قطعاً . إنه يقصد إلى « يثرب » بعقله ومنطقه وآماله ومطامعه العظام . ولكنه ، بعواطفه وأحاسيسه الطبيعية ، لا يزال متشبهاً بمكة وبكل ما فى « مكة » من جلال وجلال . ثم يذكر أمه وأباه وأخته وأخاه وعش القرابة السعيد الذى مزقته الأيام وغيرته اللبالي . وتلوح له شعاب « ضجنان^(٢) » فجأة فيذكر صباه وشبابه ، وراء التقطيع فى البادية فتتحدر دموعه تبعاً على

(١) نوعان من نبات أرض « مكة » .

(٢) ضجنان جبل فى شمال « مكة » كان « عمر » يرمى فى وديانه قطعان أبيه

« الخطاب » انظر الفصل ٣ - « عمر » فى البادية .

وجنتيه المحتلتين شباباً ونضارة وقوة . وبلا قصد ولا روية يروح ينظم قريضاً يردده لسانه ، ويبعثه جنانه ، يسجل حياة ذات ألوان ، وأحاسيس ذات أفنان . ولا يقطع عليه فيض مشاعره وأحاسيسه إلا إناخته وراحته الزوف^(١) في نهاية المرحلة الأولى لتأخذ حظها من الراحة وتستعد لطريق طويل .

وبعد عشر ليال من سير مغد ممعن سريع يوافي « عمر » « يثرب » ، في عشرين مهاجراً جمعته بهم الطريق وأنسوا به وأنس بهم . ويدخل المدينة الموموقة^(٢) ويتأمل بيوتها وطرقها وعالمها الحديد عليه . وينظر الناس إليه في موكبه نظر إكبار وإعظام . وثبيت « يثرب » تتحدث عن قادم جديد تدل مطالعه على أن سيكون له بهذه الأرض شئون وشئون .

ويتلقى المسلمون « عمر » بشوق جارف وفرح ظاهر ويلتفون حوله احتفاء واحتفالاً بمقدم من لقبه النبي (ص) بالفاروق وأعز الله به الإسلام . وراحوا يتسابقون إلى الظفر بضيفته وتكريمه . ويعقدون حوله مجالس السمر . ويسألونه عن أحوال المؤمنين في « مكة » وعن أحوال إخوانهم من الضعفاء الذين لا يستطيعون الحجرة ولا يقدرون على دفع الظلم عن أنفسهم أمام الطغاة المشركين .. وكانوا يألمون لأخبارهم ويلرفون الدموع الحارة فيكون ويبكى معهم « عمر » ثم يكفكف دموعه ، ويعدهم يوم النصر الذي لا شك أنه آت وكل آت قريب . ويسألونه متى يحضر

(١) الريمة السير .

(٢) الموموق : المجرب .

النبي (ص) فيقول لهم : هو على أثرى^(١) إن شاء الله . وبعد ثلاثة أيام في الضيافة والتحدث والتشاور في مختلف الشؤون يأبى « عمر » على مضيفيه ومنزليه إلا أن يرشدوه إلى السوق ويهدوه إلى جميع مصادر الكسب والربح ليسعى على رزقه كما يسعون ويتكسب كما يتكسبون ولا يكون عالة على ذي كسب أو ثراء مهما بلغ من ثرائه . .

وتمر الليالي والأيام تباعاً فتصبح دار الحجرة ميداناً رجباً تبرز فيه مواهبه وتأتق عبقريته أكثر فأكثر . كان هناك الموجه والمستشار والواعظ والناصح الأمين لجميع المؤمنين صغارهم وكبارهم . يرجعون إليه في مشاكلهم الدنيوية والدينية ، ويرجع هوفياً يشكك عليه إلى من يعرف فيهم الخبرة والقدرة والكفاية ، جاعلاً نصب عينيه اتباع الحق ، أينما كان ، والقدوة برسول الله (ص) في كل ما كان يقول أو يفعل .

٨ - « عمر » في المدينة بعد هجرة النبي إليها

وصم النبي (ص) بعد طول انتظار وشوق ، على هجر دار الشرك لا عن ضعف ولا عن عجز ولا هزيمة . بل لتكون الدعوة أنجع وأسرع تأثيراً وأتم نتيجة وأعم نفعاً . وفي عام ٦٢٢ للديلاذ خرج من « مكة » بزماله صديقه الأعظم « أبي بكر بن أبي قحافة » ، فاستقبل في « يثرب »

(١) أى أنه يجمع بعدى بروقت قليل .

استقبال الفاتحين. وتكتلت حوله هناك قوة إسلامية لا يستهان بها . ولما كان يحب الجهاد في كل شيء فقد سمي « يثرب » « المدينة » ودعا الله بأن يبارك لساكنيها في مُدتها وصاعها ، وأن يرزق أهلها النجح والتوفيق في كل أمر من خير الدنيا والآخرة . . وكان وزيره الأكبر هناك وأعظم مستشاريه « أبا بكر الصديق » رفيقه في الحجرة من مبدئها إلى نهايتها وصاحب اليد الطولى في الدفاع عنه ، أيام تبليغ الرسالة ، في « مكة » وأكرم من واساه بماله في سخاء تضرب به الأمثال . وأول من صدق دعوته من الرجال في غير إباء أو تعلل .

وكان « عمر » يعرف ذلك كله لأبي بكر ويبجته ويعظمه ويتخذُه مثالا له ، فتوثقت بينهما روابط الصداقة والود وصار « عمر » الوزير والمستشار الثاني للنبي (ص) بعد « أبي بكر » .

وبقدر ما كان « أبو بكر » رحيمًا لينًا كان « عمر » شديدًا لا يتهاون في أمر يرى فيه فتحاً لباب الفوضى والخراب على الحق والتهاون بالدين والشريعة تقرب عهد الناس بالجاهلية . وبهذين الوزيرين الحكيمين صارت الأمور في طريق النجاح والفلاح والنظم الأمر لأول حكومة إسلامية في « المدينة » التي أصبحت ، بعد « مكة » ، العاصمة السياسية الأولى ، كما أصبحت المركز الاقتصادي الثاني بعد « مكة » . وبدأت حركة العمران والتطور الاجتماعي تظهر في « المدينة » بشكل واضح . وبدأت المعاهدات السياسية تعقد ما بين المؤمنين وبين يهود « المدينة » أحياناً ، وأحياناً مع

قبائل العرب القريبة من « المدينة » ، لكي يتفرغ المؤمنون لصراع مرير بينهم وبين « مكة » دار الشرك وقلعة « قريش » العظيمة ، كفضاً لعدوانهم وبغيهم . وكان النبي (ص) لا يعدل بأبي بكر وعمر أحداً من أصحابه . وعليهما كان يعتمد في جل الأمور الهامة حتى لقد كان أصحابه لا ينفكون يرونه يتسم لمرآهما ويقول : هذان السمع والبصر . . كما كانوا دائماً يسمعونه يقول : فعلت كذا أنا و « أبو بكر » و « عمر » ودخلت أنا و « أبو بكر » ، و « عمر » وخرجت أنا و « أبو بكر » و « عمر » . . وكان يقول في وصية له : اقتدوا باللذين من بعدي : « أبي بكر » و « عمر » .

وتمر الأيام تباعاً فيكثر عدد المؤمنين في « المدينة » وتتنظم شؤون الدين والعبادة والتعليم . ويفكر المؤمنون في بدأ الصراع المرير بينهم وبين « مكة » . . وتكون الخطوة الأولى في هذا الصراع أن يقطعوا على « قريش » طريق تجارتها إلى « الشام » وهي أهم مورد اقتصادي تملكه في ذلك الزمان وتأتيهم الأخبار بأن أعظم عير لقريش في « الشام » ستمر بالمدينة بعد أيام منحدره نحو « مكة » . . ويترصده المؤمنون لهذه العير في الطريق المعتاد المار بالمدينة . ولكن رئيس العير « أبا سفيان » بن « حرب » قائد « قريش » وزعيم « بني أمية » الأكبر كان حذراً فأرسل من يتسم له أخبار طريقه . فلما عرف جلية الأمر مال بالعير إلى يمينه وأخذ طريق شاطئ البحر التي تسمى طريق « تهامة » ، فنجا بعيره وما تحدل من ثروات « قريش » . ولكن « قريشاً » كانت ، بناء على ما ورد إليها من الأخبار ، قد أعدت

جيشاً معبأ بالعدد والعدة واتجهت إلى الشمال بغية الدفاع عن غيرها . . فأرسل إليهم « أبو سفيان » بأن يرجعوا لأن العير قد دخلت « مكة » سالمة . . ولكن أبا جهل « عمرو بن هشام » رأس الطغاة بمكة من أعداء الإسلام ركب رأسه وأبى ألا أن يتظاهر بالقوة إرهاباً للمسلمين بل للعرب كلها حتى لا تحدث أحداً منهم نفسه بمثل ما فعل « محمد » وأصحابه . وعلم جيش المسلمين في « المدينة » بقصد « قريش » وعلى رأسهم « أبو جهل » فاندحروا خفافاً لملاقاة جيش المشركين الذي يبلغ ثلاثة أمثال جيش « المدينة » . وبعد حرب ضاحنة كان النصر لجيش المؤمنين وفقدت « قريش » سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً جلهم من صناديدها وصفوة رجالها . وباتت « مكة » أرض الأمن والسلام في جنازة كبرى وحزن شامل بما جره عليهم بنى « أبي جهل » وتجره . وكان هو نفسه من القتلى . ونرسل بعين خيالنا من هذا البعد السحيق لنرى جيش « المدينة » الذي يتألف جلّه من فرسان « ابني قبيلة ^(١) » وباقيه من مهاجرة المؤمنين . وهم يحيطون بالنبي صلى الله عليه وسلم و« أبي بكر » و« عمر » الوزيرين . في هالة من العدد والعدة والنصر المبين . وبينما رجعت « قريش » بأفطع هزيمة ، رجع هؤلاء في فرح ومرح ونشوة ما بعدها نشوة . وكان فرسان « ابني قبيلة » من الأوس والخزرج ، وهم من أشهر أبطال الحرب في ذلك الزمان ، يهزون رماحهم ويقلبون صفائح سيوفهم اللامعة مزهوين بما نالوا من نصر لدين الله ولن أووا إليهم من المهاجرين المظلومين . .

(١) هما قبيلتا « الأوس » و « الخزرج » و « قبيلة » أم القبيلتين .

وسير الجيش الراقص الطرب حتى يوافي « المدينة » على الراية ، وضاح
الجبين ، ليستقبل فيها بأعظم احتفال عرفته « المدينة » المتواضعة . ويبيت
أسارى « قريش » يثنون من آلامهم ومن شد وثاقهم . ويسمع النبي (ص)
أنين عمه « العباس » لقسوة الوثاق عليه فيرحمه ويطلب تفريج وثاقه عنه
قليلا حتى ينظر في أمرهم .

ويبدأ مجلس الشورى عمله صبيحة اليوم التالى . ويقترح « أبو بكر »
الوزير الرحيم أن يفك الأسارى نظير فداء مالى يؤخذ منهم فيكون أول
دخل اقتصادى يتقوى به المسلمون ، وعسى أن يكون مآل أولئك الأسرى
إلى الإسلام فتم للمؤمنين المهاجرين فائدة مزدوجة : الإحسان إلى ذوى
أرحامهم ، والحصول على مال جم لا غنى عنه لطالب حرب وجهاد . أما
« عمر » الوزير الشديد الذى لا تأخذه فى الحلق هوادة فقد اقترح أحد
أميرين : أن يعرض الإسلام على الأسارى فإذا قبلوه أصبح لهم ما للمؤمنين
وعليهم ما عليهم . والآخر أن تضرب أعناقهم إذا أبوا وصمموا على الشرك .
ولكى ييأس أهل الشرك من لبن المؤمنين لهم إلى الأبد ، رأى أن يختار كل
مؤمن أقرب الأسرى إليه قرابة ليضرب عنقه . وهنا يبتسم النبي (ص)
لعمر العبقري ويداعبه قائلا : أتقتل يا « عمر » عم « نبيك ؟ فيرد عمر :
نعم يا رسول الله . أقتل كل من يحارب دينك الذى جئت به .

وهنا يزداد إعجاب النبي (ص) بهذا العبقري الذى طلب أن
يكون هو البادئ بقتل أقرب الناس إليه ، تأكيد لإخلاصه لدينه

وكان أعظم ما يخشاه، من وراء إطلاق الأسارى، أنهم قد يسيرون، مرة أخرى، في انتقام رهيب من جماعة المؤمنين إذا ما أطلقوا وهم على دينهم . لأن أكثرهم من صناديد « قريش » ورؤوسها الذين لن يدخروا وسعاً للعدل على نصر يعوضون به ما فقدوه في معركة بدر . . نعم لقد ازداد إعجاب النبي (ص) بهذا العبقري الفذ ومنحه لقباً آخر هو « أبا حفص » أى الأسد . فكان اللقب الثانى بعد اللقب الذى ناله يوم إسلامه بدار « ابن الأرقم » وهو لقب « الفاروق » . ومع هذا كله تغلب جانب الشورى الأكبر على رأى « عمر » وفازت وجهة نظر « أبى بكر » بالموافقة ، وفدى الأسارى ، وانطلقوا إلى « مكة » . . وراح « عمر » مغيضاً مغضباً ليس عن تعصب لرأيه بل لخوفه على جماعة المسلمين أن تدهمهم كارثة مفاجئة . ولم يكدهمضى وقت قصير حتى نزل الوحي على رسول الله (ص) معاتباً المؤمنين فى إطلاق الأسارى وهم على شركهم . وبينما النبي (ص) وصاحبه « أبو بكر » يبكيان، لتزول الوحي بالعتاب، كان « عمر » يستأذن للدخول عليهما فأذن له فدخل وارتاع لبكائهما وبكى لهما، وسألهما عن السبب ، فقال له النبي (ص) : لقد كاد يصيبنا فى خلافك شرباً « عمر » . ثم يدور الزمن دورانه ، ويتحقق ما تخوفه « عمر » ، ويعد المشركون حلهم للانتقام ويدهمون « المدينة » فى يوم عبوس قمطرير ينتهى بهزيمة بشعة للمؤمنين لأن « خالد بن الوليد » قائد القرمان دار من رؤسهم ، بعد أن اعتقلوا هزيمة المشركين وراحوا يتبعونهم ، فأعمل فيهم قتلاً وضرباً

فاختل نظامهم وفقدوا سبعين من صناديد الإسلام منهم « حمزة بن عبد المطلب » عم النبي (ص) وأصيب النبي «ص» بجروح بليغة ، وأذاع مديعوا « قريش » أن « محمداً » قد قتل فكان الكرب عظيمًا والخطب جسيماً .

ولما وقف « أبو سفيان » قائد المشركين الأكبر يسأل : هل قتل محمد ؟ كان الذي تصدى لإجابته « عمر » فقال له : كذبت يا عدو الله ، إنه لا يزال حياً يسدعك . وكان « أبو سفيان » قد استعد للانسحاب نحو « مكة » مكتفياً بما ناله من نصر معجل فأحب أن يتشنى من المسلمين فصاح بأعلى صوته : اعلُ هبل^(١) . فأجابه « عمر » : الله أعلى وأجل . فقال « أبو سفيان » : يوم بيوم بدر . وموعدكم بدر المقبل . . فقال « عمر » : هو لكم موعد إن شاء الله .

وراح الزمان يدور والأحداث تتوالى و « عمر » ملازم للنبي (ص) في حروبه وغزواته كلها لا يتخلف عنه طرفة عين . ولا يخذله في حرب ولا في سلم ، ولا يتخلى عنه في أية مشكلة من مشاكل الحياة مهما صغرت . وكان يردد ويبرق إذا رأى من زوجات النبي (ص) شيئاً مما لا تخلو منه طباع النساء ، ما دام يبدوله أن في ذلك ما قد يكدر ، النبي (ص) أو يشغله عن تفرغه لربه ، بكل جوارحه وروحه . ولقد عاتبته إحداهن مرة بقولها : حتى علينا يا ابن « الخطاب » والوحي ينزل في بيوتنا ؟

(١) هو الصم الأكبر لقريش .

وما كان ذلك منه إلا ليزيد النبي (ص) له حباً، وبه إعجاباً. حتى لقد قال فيه : لم أر عبقرياً يفري فريه ^(١). ولو سلك « عمر » فجاً لسلك الشيطان فجاً غيره .

وكانت صحبته للنبي (ص) في المدينة يمناً وخيراً وبركة في الدين والدنيا. حتى لقد بلغ من إعجابه به أنه كان يرجع أحياناً عن رأيه الخاص واجتهاده ويأخذ بما يقوله « عمر ». وكان ذلك يحدث على ملأ من الصحابة الكرام، دون أن يرى النبي (ص) في ذلك غضاً من مقامه، أو تطاولاً على قدره . حتى لقد كان « عمر » يضرب بعض كبار الصحابة ، غضباً لله إذا بدا له من أحدهم ما يعتبره ضاراً بالدين والعقيدة . فيعذره النبي (ص) ويسترضيهم بما يرضيهم . وفي هذه القصة الطريفة ما يرينا إلى أي حد بلغ سلطان « عمر » حتى في حياة الرسول (ص) :

كان ملأ من الصحابة ، يوماً ، جاوساً عند النبي (ص) وفيهم « أبو هريرة » تابعه وملازمه لثقي الحديث وتعاليم الشريعة وأكثر أصحابه حفظاً لأحاديثه وتحديثاً بها . وكان في المجلس « عمر » . فقام النبي (ص) وحده وتركهم جلوساً ، ثم طالت غيبته ففزعوا وخرجوا في أثره . وكان أسرعهم إليه « أبو هريرة » فأدركه في حائط ^(٢) لبني النجار لم يهتد إلى باب له ، ولكنه رأى جدول ماء ينصب إليه من ثغرة في حائط . فحفر « أبو هريرة »

(١) الفرى هنا القدرة على تصريف الأمور وحل كل معقد منها . بسرعة وبسهولة .

(٢) الحائط البستان المسور ببناء .

بيده كما يحفر الثعلب ودخل . فلما لى النبي (ص) أخبره بقلق الصحابة لغيبته عنهم وأنهم خلف هذا الحائط ينتظرونه . فسر النبي (ص) وقال لأبي هريرة : نخذ نعلى هذين واخرج فمن رأيت خلف هذا الجدار يشهد أن لا إله إلا الله موقناً بها فبشره بالجنة . . وخرج « أبو هريرة » ومعه النعلان كشهادة على أنه رسول من قبل النبي (ص) ، وكان أول من لقيه « عمر » ، خلف الحائط . فأسرع إليه « أبو هريرة » يبشره ويخبره بأنه خرج ليبشرهم بالجنة . ولم يكذب يتم كلمته حتى ضربه « عمر » بظهر يده بين ثديه ضربة ألقته على ظهره ^(١) . فأسرع « أبو هريرة » إلى النبي (ص) شاكياً مجهداً بالبكاء مما فعله « عمر » به . وكان « عمر » قد دخل وراءه من الثقب دون أن يعطيه فرصة للانفراد بالحديث مع النبي (ص) . فلما عتب النبي على « عمر » في صنيعه قال له « عمر » : يا رسول الله فذاك أبى وأمى . إني لأخشى أن يتكل الناس فخلهم يعدلون . فنظر إليه النبي (ص) راضياً وقال له : فخلهم يعدلون . وإذا كان رأى النبي (ص) أول الأمر يرى إلى تشجيع أصحابه على الأمل في ثواب ربهم وزيادة الإخلاص لنبيهم : فقد نظر إليه « عمر » من ناحية أخرى ، وهى أيضاً حق وصواب . لأن كثيرين من الناس إذا اطمأنوا إلى غاية مرجوة وأصبحوا موقنين من الحصول عليها فإنهم لن يكلفوا أنفسهم تعباً في سبيلها . فإعظم

(١) كان تعجل « عمر » بهذه الضربة لينزع أبا هريرة من النطق بكلمة البشارة ، ولم يكن سوء أدب كما قد يظن .

عبقرية « عمر » وما أشد حرصه على أن يكون الثواب عن جدارة واستحقاق وجهاد وعمل لا عن مجرد عقيدة وتواكل وتهاون .

أصبح « عمر » في مجتمع المدينة « أشهر من نار على علم . وأصبحت مهابته تسبقه في كل طريق يمر فيه وفي كل مجلس يقصد إليه . حتى لقد كان الناس يتجرأون على أعمال في حضرة النبي (ص) وتتهيبونها في حضرة « عمر » . ومن طرائف ذلك أن « عمر » استأذن يوماً فأذن له النبي (ص) وكان عنده نساء من « قريش » يكلمنه ويكثرن عليه من السؤال عالية أصواتهن . فلما عرفن أن المستأذن إنما هو « عمر » تركن مجلس النبي (ص) وأسرعن إلى الحجاب . ودخل « عمر » فوجد النبي (ص) يضحك . فقال : أضحك الله سنك يا رسول الله . فقال له : أضحك من هؤلاء اللاتي كن عندي عالية أصواتهن فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب . . فقال « عمر » : يا رسول الله أنت كنت أحق أن يهين ، ثم ناداهن « عمر » قائلاً : يا عدوات أنفسهن . آتهينني ولا تهين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فنادينه : ما ذاك إلا لأن النبي (ص) رحيم شفيق وأنت قاس غليظ . فقال له النبي (ص) والذى نفسى بيده ما لقيت الشيطان قط سالكاً فجأاً^(١) إلا سلك فجأاً غير فجلك .

ومن حديث هيبته وكم فيه من طرائف أن النبي (ص) كان جالساً مع زوجته « عائشة » ، ذات يوم ، فسمعا لفظاً وأصوات صبيان ، ثم نظرا

(١) الفجح الطريق .

فإذا حبشية تزفن^(١) وقد تجمع عليها من يستهويهم اللهو وراحت
 «عائشة» تنظر إليها والنبي (ص) يسترها بذراعه وجسده، ولا تنظر إلا من
 تحت إبطه . وإذا بعمر يطلع من أحد الدروب فما إن يلمحه المتفرجون
 حتى يتفرقوا أسرع من لمح البصر . فقال النبي (ص) : إني لأنظر
 شياطين الجن والإنس قد فروا من «عمر» .

وهذا «الأسود بن سريع» الشاعر يدخل على النبي (ص) ، ذات يوم
 ويستعطفه لسمع منه شعراً يثنى فيه على الله سبحانه وعلى رسوله . فيرق
 له ويستمع إليه . فإذا «عمر» يدخل عليهما فيقول النبي (ص) لسريع :
 اسكت . . ثم يخرج «عمر» في شأن ثم يعود ويدخل مرة أخرى
 و «ابن سريع» ينشد ، فيقول له النبي : اسكت . . وبعد أن يخرج
 «عمر» يتعجب «ابن سريع» ويقول : من هذا يا رسول الله الذي
 سكتني من أجل دخوله ؟ فيقول له النبي (ص) : هذا «عمر» . هذا
 رجل لا يحب الباطل .

وهنا لا نترك العجب يستولى علينا من قبول النبي (ص) لإنشاد
 ربما كان فيه لغو باطل ، ومن منعه ذلك في حضرة «عمر» ، لأن
 النبي (ص) كان أوسع صدرأ وأوفر رقة . وكان أعلم بما هو باطل وما
 هو حق ، فلا يشق عليه أن يرشد «ابن سريع» إلى هذا وذاك في حلم
 ورفق بأكثر مما يتأتى لعمر .

وتمر الأيام عجباً لا يتسابقن إلى هوة الماضي ، و « عمر » وصاحبه « أبو بكر » يتابعان موازرة النبي (ص) ومعاونته في كل شأن من شئون الدين والدنيا ، بما لا يتيسر لغيرهما من بقية أصحاب النبي وأتباعه .

وينتقل الصراع من دائرة ضيقة بين المؤمنين في المدينة ، وبين المشركين في مكة ، إلى دائرة أوسع . إذ يجتهد بين المؤمنين وبين يهود « المدينة » من ناحية أخرى ، لما عرف به اليهود من بغى ولؤم وحسد وشح وتكالب على الثراء وحب السيطرة الاقتصادية والسعي في تفريق سكان المدينة من العرب وإلقاء العداوة بينهم ، مع قرب أنسابهم واتصال جوارهم ووحدة عنصرهم .

وتدور الدائرة على اليهود في النهاية ، ويمجلون عن هذه الأوطان وتتسع دائرة الإسلام ، وتصبح « المدينة » العاصمة الأولى للجزيرة العربية وعرش الدولة الجديدة . وتتضاءل أمجاد « مكة » ، وتصبح في المركز الثاني بعد « المدينة » وتتسع دائرة الأنساب والأصهار ، ويصبح « عمر » حماً النبي (ص) بزواجه « حفصة » ابنة « عمر » ، كما صار النبي من قبل زوجاً لعائشة ابنة « أبي بكر » الصديق الأكبر والوزير الأعظم .. وتتسع دائره الحياة في العاصمة الجديدة من الأنسال الإنسانية والروايات الاقتصادية . وتصبح « مكة » بعد الفتح دار إسلام تتبع « المدينة » وتخضع لها بعد أن ظلت عرش « قريش » في الجاهلية مئات من السنين . وصبهان المغير الذي لا يتغير . . ويستقيم للإسلام ملكه ويكمل الدين تشريعاً وتنظيماً . وتهوى قبائل العرب البادين^(١) إلى « المدينة » وتدخل في الإسلام تبعاً سراعاً . وتصبح « المدينة » الفقيرة

(١) سكان البادية .

المواضعة أعظم حاضرة لذلك العالم العربي البعيد الأطراف، من أواسط « اليمن » حتى تخوم « الشام ». ويحج نبي الإسلام إلى « مكة » حجة الوداع في عشرة آلاف من أتباعه المؤمنين، بعد أن خرج منها خائفاً يترقب، ثاني اثنين إذ هما في الغار، من نحو عشر سنوات لا أكثر. فما أسرع ما تتغير الدنيا.

ثم تتغير الدنيا أكثر فأكثر إذ يمضي رسول الله (ص) إلى جوار ربه وحببيه الأعظم تاركاً شريعته السمحة القيمة وديعة في أيدي أصحابه الميامين وتلاميذ مدرسته التي فتحت لهم أبوابها ثلاثة وعشرين هاماً تبدأ بالرسالة وتنتهي بيوم لحاقه بالرفيق الأعلى^(١).

ويصبح « أبو بكر » صديقه الأعظم ووزيره الأكبر وأعظم مضح له بالمال والحياة. خليفة من بعده، ويشاء الله أن تكون ولاية « أبي بكر » للخلافة ماثرة من مآثر « عمر » بطل هذه الصفحات، بعد أن كانت على وشك أن تطير من يد « أبي بكر » و « عمر » ومن يد « قريش » آل النبي وعصبته وقرابته.

نعم لقد أوشكت « مكة » بكل أجمادها التاريخية و « قريش » بكل تاريخها الشامخ العريق أن تكون نسياً منسياً في حلبة الزحام الذي نار غبارها في « المدينة » تحت أقدام الأنصار من « الأوس » و « الخزرج » الذين لم ينسوا يوماً أنهم أصحاب الدار العظمى التي فتحت أبوابها لفلول أولئك الهاربين من « مكة » وآوتهم وأنزلتهم على الرحب والسعة. وأن أبطالها

(١) أي بوفاته وولادته ربه.

الأنصار هم الذين هزموا « قريشاً » في معركة « بدر » لأول لقاء بين الإسلام والشرك حتى سماهم الله سبحانه « الأنصار » وأثنى عليهم في كثير من قرآنه العظيم : لذا كان همهم الاستيلاء على الخلافة ، ورسول الله (ص) لا يزال مسجى تحت ثوبه ولما يبرد جسده الشريف . فاجتمعوا في سقيفة « بنى ساعدة » يريدون صرف الأمر عن « قريش » أصحاب تاريخ « مكة من عهد « إبراهيم » أبي الأنبياء . ولقد كان الأمر على وشك الإفلات من يد القرشيين إلى الأبد ، لولا « عمر » هذا البطل الذي تتضاءل في أضواء عبقريته كل بطولة . لقد انتهز الخلاف بين الأنصار وكان خلافاً يمكن أن يصلح ويرأب (١) كسره . او تراخى القرشيون يتلاكأون بفعل المطامع وكل يحاول أيضاً جرّها إلى نفسه .. انتهز « عمر » الخلاف وكان عبقرياً تنفذ نظرته من ألف حجاب فتدزقها وتستبين ما وراءها . وكان لا يضرب ضربته إلا في المحز المرموق (٢) والغرض الموموق . رأى نصف الأنصار يحسدون نصفهم الآخر ويتلاكأون عن بيعة « سعد بن عبادة » الخزرجي أكبر زعمائهم ، خشية أن تصبح له والفرقة السيادة على « الأوس » وهم نصف الأنصار ، ثم لا يزال ذلك قذى في أعينهم آخراً الدهر . رأى ذلك فضرب ضربته القاصدة ونادى بأعلى صوته : من ذا الذي يجرؤ من هؤلاء أو أولئك أن يتقدم على « أبي بكر » صديق الرسول الأعظم وأكبر وزراءه

(١) الرأب : الإصلاح .

(٢) المرموق والمويوق : بمعنى المحبوب المراد .

في حياته والذي أنابه النبي (ص) في الصلاة بالمؤمنين لما غلبه مرض الموت .
ثم كانت الضربة الأخيرة فقال : ايسط يدك يا أبا بكر أبايعلك .
فبسط « أبو بكر » يده فكان البطل الأكبر أول مبايع . وانتهزها
« الأوس » وهم نصف الأنصار ، فرصة فتدافعوا يبأيعون « أبا بكر » حتى
كادوا يسحقون تحت أرجلهم ابن عمهم زعيم الخزرج « سعد بن عبادة »
المرشح للخلافة ، وكان مريضاً قد أسند في فراشه ساعة المؤتمر الحامس .
ورجع « أبو بكر » من ذلك المؤتمر التاريخي الأكبر ليجهز النبي
(ص) إلى مقره الأخير من أعلى عليين ، وليلي الدولة الإسلامية الناشئة
التي سيكون لها بعد في التاريخ شئون وشئون .

أصبح « أبو بكر » الحاكم الأعظم للدولة الإسلامية الناشئة وليس
بينه وبين الله أحد . وأصبح وزيره الأعظم بل ومدير الشؤون العامة للدولة
من أقصاها إلى أقصاها « عمر بن الخطاب » الذي لم تعرف الدولة
الإسلامية له نظيراً في نشاطه وقوته وتوقد فكره ودقة منطقته وشدة حرصه على
ما دق وما عظم من شئون الدولة ، وفي إصراره الملحّ الدائم على ألا يختل ميزان
العدالة طرفه عين في ليل أو نهار .

ولقد كانت ردة العرب عن الإسلام وارتكاسهم في دين الجاهلية ،
بعد وفاة الرسول (ص) ، أعظم محنة تعرض لها المجتمع الإسلامي في
« المدينة » . لقد كاد الأمر يفلت والنظام يختل ، وكاد النصر يعود
هزيمة والتقدم يعود تقهقراً وانصراماً . وماذا كان عساه يبلغ جهد « أبي بكر »

ذلك الرجل الضعيف في بدنه القوي في إيمانه وروحه ومواهبه ما دام الأمر قد عاد جاهلية وما دام ليس له من الجند والأموال ما يسنده ، لولا أنه كان يجد في « عمر » رداءً يسانده ويعاونه ويدبر معه الأمور ويجمع معه الشمل المتفرق ويعالج معه العالم الممزق بعقرية تعز عن النظر ؟ لقد استطاعا أن يجمعا من الضعف قوة ومن الفرقة اتحاداً ومن التمزق التماماً وأن يهزما جنود الردة في معارك طاحنة بحسن إدارتهما وانتخابهما الأبطال الأشاوس ومساعير الحرب من أمثال « خالد بن الوليد » و « أبي عبيدة بن الجراح » و « سعد بن أبي وقاص » ومن رجال الدهاء والمكر السيامي « كالمغيرة بن شعبة » و « عمرو بن العاص » وأمثالهم من فطاحل « قريش » وفحول الأنصار . . أجل . لم يكده يمضي عام واحد حتى عاد إلى الدولة مجدها ورواؤها ووحدها وانطفأت نار الفتنة وسحق الذين أوقدوها سحقاً ، وأبيدوا واستؤصلت شأفتهم . وأخذت « المدينة » تستعد لعمران على « عمران » وتقدم فوق تقدم ، وأجماد إثر أجماد .

وفي هذا المعترك الشديد الزحام المقعم بالصدام لم يكن على الإطلاق يعلو رأس « عمر » ، ولا قدر من الأقدار يعلو فوق قدره . إلا أن يكون الخليفة « أبا بكر » بحكم منصبه ومكانته وما كان يدخره « عمر » له من إجلال واحترام لسابقته في الإسلام وحسن بلائه في الدفاع عن نبيه (محمد) « ص » . وإذا كان « أبو بكر » قد راح يعمل للإسلام بإخلاص كامل ونشاط كامل وتضحية كاملة ، فإن « عمر » كان يساعده بألف

إخلاص ، ويعمل بألف نشاط ، ويقف في الشئون على ألف رجل ، ويفكر بألف عقل جبار ، ويحرق كل يوم في التفكير والاهتمام ألف ألف عصب من أعصابه . حتى لقد كان « أبو بكر » يقول له : كنت يا عمر أقدر على هذا الأمر مني وكنت أريدك له فأبيت بيعتي لك وخشيتُ الفرقة والفشل فأسرعتُ إلى قبول بيعتك لي . بل لقد كان يجد من الأمور ما يتمسك فيه « عمر » بوجهة نظره فلا يجد « أبو بكر » ، وهو الخليفة ، بدلاً من تنفيذ ما يراه « عمر » لظهور الحق وضاحاً في جانبه .

ولنبعث من هنا بعين الخيال عبر العصور والدهور لئرى وقدماً ينحدر من البادية في يوم شديد الحر تغلى منه النواصي والأقدام بزعامة « الأقرع ابن حابس » و « عيينة بن حصن » . حتى يصل إلى « المدينة » عاصمة الدولة . ويتقدم إلى الخليفة « أبي بكر » هذان الزعيان المقدمان في قومهما حتى لكأنهما ملكان متوجان ، ثم ما أدراك ما قومهما ؟ آلاف مؤلفة من العدد والعدة والنعم الوفيرة والجاه العظيم . إن غضبة منهما تستطيع أن تبعث عشرات الألوف من الفرسان ركباً على متون الخيل مدججين بالرماح والسيوف لشن غارات على من يريدون دون أن يعلم نهايتها إلا الله . ويتاقهما الخليفة بالترحاب والتكريم وينزلهما خير منزل . وفي جلسة معه يسألانه أن يقطعهما أرضاً بالبادية ليصلحاها ويزرعاها . ويساعدهما بعض بطانة الخليفة فيقبل العرض ، بحسن نية ، ويكتب لهما صك الإقطاع ويشهد عليه « عمر » الذي لم يكن حاضراً حتى يكون للصك قيمته

التنفيذية ، ولا يخشى عليه اعتراض ، ما دام « عمر » سيكون من شهوده .
ويفرح الرجال العظماء ويذهبان بالصك إلى « عمر » في حظيرة إبلة .
حيث كان يطلى بعيراً له بالقطران . ويسألهان فيرد السلام بكل هدوء
واتزان ، ودون أى اهتمام خاص لأنه كان بطبيعته ومبدئه ضد كل
تمايز بين الطبقات ، وضد كل استعلاء من أى إنسان على أى
إنسان . ويمدان إليه الصك فى أنفة وتعظيم ليشهد عليه كما حتم ذلك
الخليفة « أبو بكر » . . . ويأخذه فى برود ويقرأه حتى يحيط بما فيه . .
وبكل برودة يمكن أن نتصورها فى أعصاب رجل ، يتفل على الصك ويحك
بعضه ببعض فتمحى الكتابة ، وينهدم كل ما بناه ، فى طرفة عين ،
ثم يلقى إليهما به . ويغضببان أشد الغضب ويتناولان « عمر » بألفاظ نابية . .
ولكن العبرى الذى لم يعرف يوماً قيمة لشخصه ، إلا على ضوء الحق
والعدل ، لا يعبا بشتم ولا تهديد . ويقول لهما : إن رسول الله (ص) كان
يتألف قلبكما بالعطايا والمنح لما كان الإسلام لا يزال ضعيفاً ذليلاً (١) . .
أما الآن وقد أعز الله الإسلام فقيم المحابة لكما وإيثاركما على غيركما ؟
أهى أرضى حتى أقطعكماها ، أو أرض « أبى بكر » حتى يتصرف
فيها برأيه الخاص ؟ إنها أرض المسلمين يتعلق بها من حقوقهم ما جل وما
صغر : حق اليتيم والمسكين وابن السبيل والأرملة والفقير . وما لا يحصى

(١) كان نصيهما فى إحدى الفزوات ماثنى جمل من الغنائم ، مما دعا بعض
المقاتلة إلى التذمر ، مع أن ذلك كان بأمر النبي « ص » .

من الحقوق .. ويخرجان في أشد انفعالات الغيظ . ويذهبان إلى « أبي بكر » . ويقولان له : أنت الخليفة أم « عمر » ؟ والله ما ندرى أيكما الخليفة ؟ وباله من تحريض خبيث يقوم به هذان الطمّاعان ليوقعا بين الأخوين العظيمين « أبي بكر » و « عمر » . ولكن الله يسدد (١)

« أبابكر » ويلهمه الصواب فيفهم غرضهما الخبيث . ويقول لهما : بل الخليفة « عمر » لو شاء . ويأتي « عمر » على أثرهما مغضباً فيقول لأبي بكر : أأرضك هذه أم أرض المسلمين ؟ فيقول له : بل أرض المسلمين عامة . فيقول : وهل أذن لك المسلمون في أن تقطعها لهدنين دون غيرهما ؟ فيقول « أبو بكر » : أشار علىّ بذلك من حولي .. فيقول « عمر » أو كل من هنا من المسلمين أوسعهم مشورة ؟ .. ويقول له « أبو بكر » : يا عمر لقد قلت لك : إنك كنت أقدر على هذا الأمر مني ولكنك آبيت أن تقبل بيعتي لك . وغلبتني على أمرى .

ثم يكون ختام القصة أن ينظر « عمر » إلى هذين المتبجحين بقوتيهما وجاههما ويقول لهما : انصرفا واجهدا جهدكما ولا راعا كما الله ولا أبقى عليكما إن خليتما جهداً من تدبيركما (٢) . فقد أعز الله الإسلام وأغناه عن مثلكما .. ويذهبان إلى البادية يجران أذيال الخيئة والفشل (٣) بعد أن لقيهما « عمر » درساً لن ينسيها ما بقيا على قيد الحياة .

(١) التمديد : العصاة من الخطأ .

(٢) أي إن كان لكما قوة فأظهرهما .

(٣) كان هذا العمل به عهد جديد في التشريع الإسلامي ، وبه سقط سهم

« المولفة قلوبهم » بعد أن كانوا بنص القرآن يستحقون سهما في الزكاة .

٩ - عمر في الخلافة

لم تكن الخلافة بعيدة عن « عمر » في يوم ما، منذ دخل في الإسلام إذا قصدنا بالخلافة القيام على تصريف الشؤون العامة للجماعة الإسلامية نيابة عن رئيسها الأعظم « محمد » (ص). إن « عمر » لم ينس هذه النيابة وهذا الاهتمام بشؤون الجماعة لحظة من حياته ، لاني عهد الرسول (ص) ولا في عهد « أبي بكر » ، إذ كان المحرك الدائب العمل الذي لا يعرف الهدوء . ولم يكن يعتقد أن الخلافة هي السلطة الرسمية وأبهة المنصب وتفوذ الأمر فحسب. إنها في اعتقاده أعظم مجموعة من الخدمات يمكن أن يؤديها للجماعة من يقدر عليها . ولقد كان بحمد الله يؤدي ذلك خير الأداء، منذ أصبح عضواً في الجماعة الإسلامية . وعند ما أحس « أبو بكر » بخطورة مرضه الأخير راح يشاور سراً من يثق بهم في دينهم وعلمهم وأخلاقهم من الصحابة . ولكنه في الحقيقة لم يكن يعدل بعمر أحداً منهم على الإطلاق . وكانت أكثر مشاوراته تدور حول « عمر » . وكان يشاوره أحياناً ليستطلع رأيه أيقبلها أم يرفضها ؟ وكان « عمر » يخشى ما وراءها من توضحيات جسام على رجل له مثل ضميره وشدة خوفه من ربه . لذا كان يقول أحياناً لأبي بكر : لا حاجة بي إليها . وكان « أبو بكر » يقول له : ولكن بها حاجة إليك .. وعرف كثير من الصحابة

عزم « أبي بكر » على اختيار « عمر » ففزعوا وراحوا يرجون « أبا بكر » ألا يفعل لما عرف به « عمر » من شدة في الحق كانت لا تحلو لكثير منهم .
لأنهم لا ينسون أنه كان من أشد الناس على « خالد بن الوليد » قائد « أبي بكر » الأعظم عند ما قتل « مالك بن نويرة » في إحدى غزواته ، دوى أن يتثبت . كان « عمر » يريد عزله وإيقافه موقف الاتهام والتقصاص منه إذا ظهر أنه كان متعمداً قتل « مالك » بلا ذنب . ولولا تغلب الآراء الأخرى على رأى « عمر » لأصاب خالداً شراً قبل له به ^(١) .. إن « عمر » لا يعرف في الحق دوراناً ولا مصانعة ولا محاباة ولا ميلاً ولا ضعفاً . وهذا النمط النادر من الرجال لا يكون عادة كثير الأنصار والأحباب . . وشعر « أبو بكر » بالجموع تتكاثر عليه من أجل إبعاد « عمر » الذى كان معروفاً له بمزايده وفضائله أكثر من كل أحد سواه . واشتد الجدل ذات مرة فقال بعضهم لأبي بكر : وماذا تقول لربك إذا وليت علينا « عمر » مع ما تعرفه من شدته علينا قبل الولاية ؟ ثم كيف به بعدها ؟ وعند ما سمع « أبو بكر » ذلك القول قال لمن حوله : أسندوني . فأسندوه فصاح فيهم مغضباً : أبالله تهددونى ؟ لقد خاب من تزود من أمركم بظلم ^(٢) . أقول

(١) ما يدعو إلى العجب أن « خاله » كان ابن خال « عمر » لأنه ابن عم أمه . فله به صلة نسب قريب مزدوج . ولكن « عمر » العبقرى ما كان يعرف في الحق خالاً ولا أباً . فله دره من عبقرى عديم النظير .
(٢) أى ما كنت يوماً لأظلمكم مع علمى بأن الظلم خيبة وخسران .

لربي : يا رب إني وليت عليهم خير أهلك . . وانصرف آخر جمع ليدخل « عثمان بن عفان » كاتب « أبي بكر » ومستشاره فيمليه عهده إلى « عمر » بالخلافة . ويكتب « عثمان » العهد ويختمه بخاتم الخليفة . . وتمضى لحظات فيلفظ « أبو بكر » آخر أنفاس حياته ويودع دار المتاعب إلى دار الراحة الأبدية . . ويصبح « عمر » الخليفة الثاني حاملاً للمسئولية الكبرى في الدولة ، وما أعظمها من مسؤولية على مثله .

ثم يشاء الله أن يكون أول من يذوق شدة « عمر » في الحق هم آل « أبي بكر » الذي اختاره للخلافة وأغضب من أجله كثيراً من الصحابة : أصبح « عمر » جالساً في مكانه للقيام بأمر الخلافة ومعه مستشاره « عبد الرحمن بن عوف » أحد أعلام الصحابة وأحد القلائل الذين كانوا موضع رضاء النبي (ص) ومحل ثقته المطلقة . وبينما هما يتشاوران في الأمر ويعرضان المشاكل دخل رسول « أبي بكر » الذي كان بعد النبي أحب رجل إلى « عمر » . فسأله « عمر » ما وراءك ؟ فقال : هذه وصية الخليفة الراحل « أبي بكر » جئت إليك بها معجلاً كما أوصاني بالأمس . ويفتح « عمر » الوصية فإذا « أبو بكر » يطلب منه أن يتسلم من أهل بيته عبداً من عبيد الصدقة وجملاً ناضحاً^(١) وجرّد قטיפه ، ليضمها إلى مال المسلمين . وهي كل ما بقي من مال للمسلمين في ذمته التي يريد إبراءها أمام الله . وهنا تغشى « عمر » غاشية من التأثير الذي لا حد له ويطلق

(١) الناضح الذي يستعمل في سق الزرع بالوقاق .

سيلا من مدامعه الغزار ويقول : أتعب « أبو بكر » من جاء بعده .
 أتعب « أبو بكر » من جاء بعده ^(١) . ويستعبر « عبد الرحمن » في البكاء
 ما شاء الله له أن يبكي . ثم يتبها على مناقشة تحتدم بينهما : « عمر »
 يريد تسلم العبد والحمل وجرذ القطيفة . و « عبد الرحمن » يقول له :
 سبحان الله يا « عمر » ! أتأخذ من آل « أبي بكر » جملا ناضحا وعبداً
 وجرذ قطيفة ثمنه خمسة دراهم ؟ إنك لتعلم أنه بدد الآلاف المؤلفة من ماله
 يوم كنا فقراء لا نملك غير أقواتنا ، إيماناً منه بوعد الله ، وهدياً على
 رسول الله ، ودفاعاً عن الإسلام . دعها لم يا عمر . ويقول له « عمر » :
 عجباً يا ابن عوف لك . أتريد أن يريئ « أبو بكر » ذمته منها أمام الله
 وأصبح أنا مسئولاً عنها أمامه يوم الحساب ؟ استمع إلى « يا ابن عوف » :
 إنما وليت هذا الأمر وأنا أعلم أنه الأمانة التي تعجز عن حملها السموات
 والأرض والجبال . ولو علمت أن في أصحاب « محمد » صلى الله عليه وسلم
 من يستطيع حملها ، كما أحب أنا أن تحمل ، لكان أحب إليّ أن
 تضرب عنق من أن أتقدم عليه لحملها إنشاراً لنفسي عليه . . يا ابن عوف «
 إنما مثلي ومثل صاحبي ^(٢) من قبلي كمثل اثنين سلكا طريقاً مستقيماً لا
 أمّت ^(٣) فيه فوصلاً ونالاً ما أرادوا . وتبعهما الثالث يريد الوصول إليهما . فإن

(١) يعني أن من سيجي بعده مهما تعب فلن يصل إلى مثل فضائله ومزاياه .

(٢) يعني النبي (ص) وأبنا بكر .

(٣) لا عوج فيه .

سار على طريقهما ولزم جادتهما لا يجيد عنها قيد شعرة أدركها ونعم
 بهما . وإن حاد قيد شعرة لم يدركهما ولم يجتمع بهما . وانتهى الأمر بتسلم
 هذه المخلفات المتواضعة وضمها إلى أمانات المسلمين . لأن « عمر » ، في
 ذات الله ، لا يريد حياء ولا مساومة بسبب ما يمكنه لآل « أبي بكر » من
 حب وإعزاز لا حد له .

تلك واحدة من تشددات « عمر » التي كان الناس قديماً يكرهونه
 من أجلها . فهل تمت (١) من قلب يستشعر الكرامة والذمة والإخلاص
 لربه ودينه يكره الآن أمثال هذه الروائع السماوية التي لن تتيمر إلا للمهم
 تمدد السماء بأنوار غامرة لا يضل معها طريقاً ولا يستشعر حيرة ؟ إنها أنوار
 تغمره من مداخل لا يعلمها إلا الله ، ثم تستقر في ضميره الطاهر الذي
 لا حد لظهوره ولا لصفاته لكي تربو في داخله وتنمو وتنعكس على جميع
 من حوله في أضواء ساطعة لا تستطيع عين أن تتجاهلها ، ولا نفس مهما
 قست إلا أن تلين لها ، وتذوب في تيارها الجارف .

وهكذا أصبح رابضاً في « للمدينة » الخالدة ذلك الكوكب الدرّي
 العبقري لكي يغمر بأضوائه العالم ويبهير الدنيا ، ما قرب منها وما بعد .
 ولقد أعلن « عمر » منهجه السياسي في كلمات قد وزنت بميزان
 الذهب ، بل كانت أدق من الميزان نفسه في شرح خطبة « عمر » والإبانة
 عن عبقريته الفذة ، إذ قال في أول خطبة له بعد الخلافة : إنما مثل العرب

(١) فهل هناك .

كمثل جمل أنيف^(١) اتبع قائده فليستظر قائده حيث يقوده . أما أنا فورب الكعبة لأحملهم على الطريق .

بهذه الحمل الثلاث المحدودة أبان « عمر » عن علمه الجلم وخبرته بالنفوس والطبائع ، وعن تضلعه من السياسة وحظه من الكياسة . وعن مدى معرفته بنفسه وما زخر في جوانبها من كنوز الحكمة والكفاية التي لا تطولها كفاية . والحق الذي لا يشوبه لبس هو أن العرب في ذلك الزمان كانوا يخضعون للسلطة الإسلامية خضوع جمل أنيف بسحب بالبرة من أنفه فيتبع قائده مرغماً منصاعاً لقوته ، وهو بطبيعته الحقيقية عصي شرود لو قست عليه يد قائده أكثر مما ينبغي لثارت وقاعس وخبط وهاج حتى تتحطم برّته ، أو يتحطم أنفه ، ثم يطلق سيقانه للريح فلا يلحق به لاحق . ولو أرخت له الزمام يد قائده فأفلت منها لندّ^(٢) يجبط في كل مكان حتى يحنق ، أو يتردى في مهواة ، أو يتوغل في تيه فيهلك فيه .. وإذن فإن سائسه وقائده يجب أن يكون في غاية الحذر وفي غاية الحكمة فلا يحكم أكثر مما ينبغي ولا يلين أكثر مما يجب .. وأما أن القائد يجب عليه أن يعرف الطريق الذي يقود فيه تابعه فإن ذلك مبدأ وقاعدة من قواعد السياسة لا يحيط بها نظرياً وعملياً إلا عبقرى ملهم مثل « عمر » . لأن

(١) يشدكي أنفه من طوله سمحه منه بالبرة وهي حلقة من الحديد تطبق على أنف الجمل الشرود ليقاد بها رغم أنفه .

(٢) ذ البعير شرود وانطلق على وجهه .

جهل الطريق ليس وراءه سوى الدمار واليوار. ولذا كان « عمر » ، بعد معرفته بطباع من سيقودهم ، ومعرفته بالطريق الذى يجب أن يسلك، واثقاً من نفسه تمام الوثوق . لأنها نفس عركها^(١) وابتلاها وعرف دخائلها وطواياها . ولعله فى ذلك كان مصداق الوصية الشهيرة التى اتخذها « سقراط » الحكيم له شعاراً دائماً « أعرف نفسك بنفسك » .. وإذن فقد تقدم للزعامة والسيادة والقيادة وهو مسلح بأعظم عدة من المزايا النادرة والكفايات العالية التى يندر أن يكون لها ضريب فى العالم .

إن الحاكم الذى يجعل وجهته الحق الذى أجمعت على تقديمه الجماعة ، فلا يجيد عن طريقه طرفة عين ، ولا يسمح لأحد أن يجيد عنه ، ويستطيع أن يكون إعصاراً مدمراً ، كما يستطيع أن يكون برداً وسلاماً ، تبعاً لمقتضيات الظروف والأحوال ، هو الحاكم الذى تخضع لسلطانه الجبابرة وتسعد بملكته كل نفس معذبة حائرة ، وبه تتكفل القوى وتجتمع الجهود وتتوحد الوجهة فى سبيل الخير ، فإذا السبيل ميسر والخير محصل والنتائج مضمونة ، والعقبى نجاح وفلاح وظفر . وحسبنا بحاكم يمر تحت ميزاب للعباس عم الرسول (ص) يوماً فيصيب ثيابه منه ماء مختلط بدم دجاج فىرى ذلك أذى على السابلة^(٢) ويأمر بمخلع الميزاب فيخلع فى الحال ، دون محاباة لعم الرسول (ص) ، على جلالة قدره ، فيأتى

(١) جربها وامتنحها كثيراً .

(٢) الناس الذين يمرون فى الطريق .

« العباس » في رفق وتلطف ويخبره بأنه لم يضع هذا الميزاب في مكانه إلا رسول الله (ص)، فيأخذ بيد « العباس » وبالميزاب ويأبى إلا أن يحمل « العباس » بنفسه حتى يضع الميزاب مكانه ، إكراماً لرسول الله « ص » وتعظيماً ؛ فتبيت « المدينة » ساهرة على التحدث بعمله العظيم وتسير به الركبان في شتى بقاع الأرض . إن خلع الميزاب كان جزاء وفاقاً رادعاً ، دون شك ، عن العودة إلى أذى الناس عن طريق سوء استعماله . كما أن رده إلى مكانه ، إكراماً لآثار النبي (ص) ، كان رعاية وأدباً عالياً تضرب به الأمثال ، وتؤسر به القلوب ، وتستأنس به الطباع العصية ، وتراض بمثله الفرائز الوحشية .

وكان « عمر » في هذا الباب قريع دهره ونسيج وحده ، وكان ضميره فا يقظة لا تترك ذرة من الضعف والهوى تنساب إلى نفسه وتعكر صفاءها وضياءها الوهاج . ولذره الآن بعين خيالنا ، بجسمه الطويل الفارع جالساً بين جمع حاشد من أهل « المدينة » يقسم على نساءهم مروطاً^(١) تتخطفها أيديهم ، في سعادة لاحد لها ، ويررحون بها إلى بيوتهم فرحين . ويتفق أن يبقى من المروط مرط جيد يسر الناظرين في تراث « عمر » في تسليمه وبقائه في يده ويصمت كأنما يفكر فيمن تستحقه من نساء رعيته الحبيبة إلى نفسه . ويرى بعض من معه ما هو فيه فيقول له : أعط هذا ابنة رسول الله التي

(١) المروط ثياب معروفة تلبسها النساء كانوا يحصلون عليها كضرائب أو بطريق

الصلح ، من البلاد الصناعية .

عندك - يريد « أم كلثوم » بنت « علي بن أبي طالب » حفيذة النبي وزوجة « عمر » . وسرعان ما يدرك الحاكم العبقري أن ريح الهوى تحاول أن تهب على نفسه فيأمر لزوجته بالمرط الجميل بحجة أنها حفيذة النبي (ص) . ثم سرعان ما يرفض ذلك ويقول : لا . . . إن « أم سلبط » أحق به . لأنها من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وكانت توفى لنا القرب يوم « أحد » . وهكذا منح المرط الجليد الجميل لهذه المسكينة التي لا جاه لها ولا حسب ولا ثراء . امرأة من عتوض المساكين كان كل حسبها وجاهها أنها بايعت النبي (ص) ، ولم تكن الوحيدة التي بايعته ، وأنها كانت امرأة فدائية تخاطر بنفسها وسط المعركة لترقع كل قرية تتمزق من كثرة حمل الماء إلى الجند . لقد التمس لهذه المسكينة شيئاً يفضلها به على زوجته حفيذة الرسول ، فحجر كسرهما وطيب خاطرهما ، ووهب لها أفضلية كانت ستفقدتها أبد الدهر هي وأمثالها من المساكين لولا « عمر » وعدل « عمر » الذي سوى بين الجميع ما عدا امتيازهم بفضائلهم وأعمالهم . ولم يكن « عمر » يخاف على نفسه فقط ، ويكتفى بحساب ضميره فحسب . إنه أحب أن يكون ضمير رعيته نقياً كضميره وأن تكون أعمالهم طيبة كأعماله . وكان يهتم بقريش في ذلك بأكثر من سواها لأنهم كانوا عرضة للإدلال بشرفهم ومفاخرهم ومجدهم العريق مما يجعلهم يلتصقون الأسباب لتفضيل أنفسهم على غيرهم في الأرزاق والأموال كما فضلوا بالشرف والنسب . ومن أجل ذلك منعهم من مغادرة « المدينة » والتوطن

بغيرها من البلاد لاتخاذ الإقطاعات وجمع الثروات ، على ما في ذلك من إثارة الأحقاد عليهم والكرهية لهم ، وإثارة المنافسة فيما بينهم . . وكان يقول : إن « قريشاً » تريد أن تكون مهلكة لمال الله تحتازه دون عباده . أما وأنا حتى فلا .. وبعد فلعل « عمر » كان أول حاكم في التاريخ اتخذ هذا الإجراء الذي يسمونه اليوم « تحديد الإقامة » بهذا الشكل الجماعي ، للأعداء ينجسهم ويحاصرهم ، وإنما لقومه وأهله وعشيرته . ولم يكن ذلك إلا حرصاً على خيرهم وسعادتهم وإبقاء على مكانتهم في نظر الجماعة قاصبها ودانها . كذلك كان يمتحن ضمائر عماله ليرى مدى حبهم للمال وحرصهم عليه أو سخاوتهم به وصرفه في وجوه البر والخير . وكان من أجل ذلك يرسل إليهم بمقادير من المال في صرر تحوى مئات الدنانير ويوصى حاملها بأن يسلمها إلى فلان أو فلان من عماله ^(١) ، كإعانة له من قبل الخليفة ليصلح بها من شئونه ، على أن ينتظر رسوله هناك حتى يرى بماذا يتصرف عامله فيها ؟ أيدخرها لنفسه وتشج بها نفسه ، أم يجود بها ويساعد منها ذوى الحاجات ؟ . وكان يسر أعظم السرور إذا سمع عنهم الزهد في المال والسخاء به ويقول : الحمد لله .. إنهم إخوة بعضهم من بعض . ولقد أصاب « عمر » كل الإصابة . لأن الشره إلى احتياز المال إذا أصاب نفس حاكم وتمكن منها كان كارثة على العدل والإنصاف ومفسدة من أعظم مفسدات الحكم .

(١) المراد بالمال هنا الولاية والحكام .

ولم يكن « عمر » يعتبر الحكم تشریفاً بل كان يعتبره تكليفاً ومهمة محتمة الأداء : دون أن يفرد لنفسه بشيء من الامتياز أو يفضل على الرعية بأى مظهر من مظاهر العظمة والكبرياء . إن هذا التشریف بالحكم لم يحظر له على بال ولم يمس عرفاً من عروقه ، ولم يهز عصباً من أعصابه . وما كان أعظمه من تشریف لو أراد « عمر » ذلك التشریف . لقد كان فن المعمار ، بلا شك . قد بدأ يتمشى فى حياة المدينة ، وبدأت حياة الرغد تظهر وتدب فى بيوتها المفعمة بالثروات . ولم ننس أن « عمر » كان قد نشأ وترعرع فى « مكة » ورأى بيوت الأثرياء من ثراة « قريش » وما تحوى من ضروب النعيم ، وشعر بالبنون الشاسع بين بيوتهم وبيت أبيه « الخطاب » ذى العيش العادى المتواضع : خبزة الشعير وقدح اللبن وقطعه اللحم ووسادة الليف الخشنة وحصير السعف . تقابل فى بيوت الأثرياء وسائد الكرسف ^(١) فى الحرير ، وحشايا الخبز والديباج وصنوف الخلل الفاخرة . وضروب المطاعم التى يسيل لها اللعاب وترنو إليها عيون المحرومين . رأى كل هذه الفوارق فى صباه وشبابه . فى نفس بيوت « قريش » أهله وعشيرته . وكم للفوارق المعيشية . بين ذوى القربى ، من حزازات فى النفوس وآلام فى القلوب وأوجاع فى الحشا وعذاب فى الضمير . وكم لهذه الفوارق عند نفوس العاديين من بنى البشر من دفع إلى التكالب على المادة والتزاحم

(١) القطن الخفيف الناعم .

والثناقص في سبيلها ، حتى لتتمنى نفوس جوّعى لو حيزت لها الدنيا بما رحبت ، وحرّم ذلك على غيرها من النفوس ، ليظهر التفوق ، ويتضح الغلب ، ويتألق الفوز . لقد كانت الفرصة مواتية ، وإيم الله ، لابن « الخطاب » لكي يعوض ما فاته فيضم إلى شرف نسبه القرشي الشامخ خبرات الدنيا العريضة وزهرتها ومتاعها الحلو ورغدها الفائض وزينتها المتألقة اللامعة ، ويمتلك من ذلك ما كان لقارون حين كان يخرج على قومه في زينته فيقولون : « يا ليت لنا مثل ما أوتي « قارون » إنه لذو حظ عظيم » وإن ما أوتي « قارون » ذلك اليهودى الثرى المغمور في مملكة « إسرائيل » الصغيرة ، لم يكن يبلغ أكثر من قطرة في بحر بالنسبة لما كان يجبي إلى « عمر » من أرض تحوى رقعتها إذ ذاك ما لا يقل عن عشرة أقطار تحوى من الموارد والغلات والثروات ما لا يحيط به الإحصاء . وما كانت « مصر » كلها وإن عظمت إلا قطراً من هذه الأقطار . وهى التى افتخر بملكها « فرعون » فقال : أليس لى ملك « مصر » وهذه الأنهار تجرى من تحتى . لقد ملك « عمر » ملك « فرعون » كله ، وملك « سليمان » كله وما لم يصل إليه « فرعون » ولا « سليمان » من بلاد وأقطار فلم يحرك ذلك منه عرقاً بزهو ، ولا هز لسانه بفخر ، ولا مس أنفه بكبر ولا حملة على الانتهاز وجر المغامم لنفسه . إن نفسه كانت أعظم من ذلك كله . وعظمته الذاتية كانت أكبر من ذلك كله . كان يرى أن ليس

لحاكم عادل مؤمن بالخير والعدل والفضيلة أن يحتاز لنفسه من ذلك شيئاً أو يتفضل بشيء منه على الناس . وكيف ؟ وهو الذى كان يقول : « إذا كنت فى منزلة تسعنى وتعجز الناس فوالله ما تلك لى بمنزلة حتى أكون أسوة بالناس » (١)

كانت الوفود ترد إلى مكانه فى « المدينة » فيجدونه فى دار لإبل الصدقة وليس عليه إلا إزار قطرى (٢) وهو يطلى لإبل الصدقة بالقطران (٣) وعند ما جىء بالهرمزان أحد ملوك الفرس أسيراً ، وعليه تاجه وحلله وحلاه الذهبية ، أدخلوه على « عمر » . وهو نائم بالمسجد ، وقد أثر التراب فى ملابسه المتواضعة . فلما هب من نومه ورأى منظر « الهرمزان » وحلاه الذهبية وجواهره اللامعة على ثيابه الحريرية البراقة قال : أعوذ بالله من النار . أى من نار جهنم التى تنتظر أصحاب الترف الصارخ يبتزونه من دماء الرعية . وما أكثر المحتاجين إليه بمسدهم العارى وبظهم الجائع . أما « الهرمزان » فسأل : كيف ينام ملككم هذا بلا حرس ولا حجاب ؟ فلما أفهم السبب قال : هذا هو الملك لا ما نحن فيه .

وكان أيام فتوح بلاد « الفرس » يشتد به القلق فينتزع نفسه

(١) مثلهم سواء بسواء .

(٢) من ناحية « قطر » بالبحرين . وهو نوع متواضع من الثياب .

(٣) كان بنشأته فى البادية من أعظم الناس خبرة فى هذه الأمور . فأجيب

إلا يضع ما يحسه ، عبثاً ، لكى يرضى نزعته الكبرياء .

من أشغاله المتراكمة ، ويخرج راجلاً^(١) إلى ضواحي « المدينة » ينسم الأخبار . ومن الطرائف أنه لقي يوماً أحد بُشراء^(٢) الفتح ، راكباً على بعير ، فراح « عمر » يسأله والرجل يجيبه وهو راكب ولا يعلم أنه أمير المؤمنين . و « عمر » يمشى بجانبه وقد وضع يده على مؤخرة البعير كأنما هو فرد صغير من الرعية . فلما انتهيا إلى العمران رأى الناس يسلمون على « عمر » بأمر المؤمنين . وفزع الرجل ونزل يعتذر ويقول : هلا أخبرتني ، يرحمك الله ، بأنك أمير المؤمنين ؟ ويرد عليه « عمر » قائلاً له : لا بأس عليك يا أخي ، لا بأس عليك يا أخي . .

ولنذهب بجباننا إلى زمانه ومكانه لنراه يوماً في حظيرة إبل الصدقة بالمدينة ، وقد راح يظلي بعيراً بالقطران فإذا « الأحنف بن قيس » زعيم العراق ومملكه غير المتوج^(٣) يوافي « عمر » على رأس وفد العراق وهو في أبهى حلله وأبهة زعامته ونفوذه . ويسلم عليه « عمر » ثم يدعوه ليعلمه درساً في التواضع لا ينساه : قال له : هلم يا « أحنف » لتساعد أمير المؤمنين في هذا البعير . لأن فيه حق اليتيم والمسكين والأرملة . ولم يملك الأحنف إلا أن يخلع ثيابه ليقوم بما يقوم به أمير المؤمنين . ويتكلم أحد الحاضرين قائلاً : يا أمير المؤمنين هلا كلفت عبداً من عبيد الصدقة أن يكفيك ما أنت فيه ؟ ويجيب « عمر » : ومن

(١) ماشياً على رجله كأي رجل من الرعية .

(٢) الذين يرسلون بأخبار الانتصارات الكبرى .

(٣) كان إذا غضب سلك لغضبه عشرات الألوف من السيوف دون أن يسأل

أعبد مني ومن الأحنّف؟ إن من ولي مصالح الرعية يجب عليه أن يكون عبداً لهم . ولا يملك القوم إلا الإطراق برءوسهم والخشوع أمام آية من أعظم آيات التواضع والقدرة على تأديب النفس وتناسي الأنانية إلى حد لا يتأتى إلا للكرام الملائكة المقربين .

وكان « عمر » على تواضعه الجلم ورقته للرعية وحده عليهم ، دهيماً في كل قلب معظماً في كل نفس . تسبقه هيئته إلى كل مكان دون تكلف أو تصنع . وما سر ذلك إلا لأنه كان يكره الخروج على حدود الشرع والاستهانة بمكارم الأخلاق . ويؤدب على ذلك أوجع التأديب ، إذا لم تفلح العظة ولم تجد الرحمة .

ومما يستحق أن يسطر في ذلك أن جماعة من أهل « المدينة » بعثوا إليه يوماً « عبد الرحمن بن عوف » ليكلمه في أن يرق لهم ويكون أكثر تسامحاً . فقال « عمر » أو قد قالوها؟ والله لو عرفوا مدى رقتي لهم وحدتي^(١) عليهم لأخذوا ثوبي من عاتقي^(٢) . . . والله لأنا أشد خوفاً لله منهم مني . . . وراه يوماً جماعة وقد طلع فجأة فسقط بعضهم على ركبته من شدة المفاجأة فأرسل « عمر » عينيه بالبكاء . وقال والله إنى لأخوف لربي بأكثر من خوفهم مني . . . ودعا يوماً بامرأة يتخذ الرجال من بيتها مكاناً للجلوس والحديث . فلما بلغها الخبر قالت : يا ويلي يا ويلي ! مالي ولعمر؟

(١) الخدب الحب العميق .

(٢) أي لاجترأوا على وطعموا في إلى حد الخروج عن الحدود المشروعة .

وضربها المخاض^(١) في طريقها فالت إلى أهل بيت فوضعت غلاماً لم يكد يرى النور حتى خمد إلى الأبد . وعلم « عمر » فاهتم أشد اهتمام وفرغ أشد « فرغ » وجمع مؤمراً من المهاجرين والأنصار ليشيروا عليه بما يروونه . وقال بعضهم : يا أمير المؤمنين إنك مؤدّب ولم ترد بها ضرراً فلا عليك . ولم يعجب « عمر » هذا فطلب من « علي بن أبي طالب » رأيه فأفتى بأن يدفع « عمر » من ماله ومال أقربائه دية الوليد ، فاستجاب « عمر » لرأى « علي » وأخذ به تحوطاً من الظلم .

١٠ - نهاية حياة « عمر »

ثم يدور الزمان بل يستدير ويتحول فجأة من إقبال إلى إدبار ومن سعادة إلى بؤس ومن سلام ورخاء وسعادة وأمن إلى خوف ووحشة وشدة وبغى وظلم وطغيان وقتن . إذ بينما « عمر » في أوج مجده وذروة علاه وقمة نشاطه ينتقل ويتحول في اليوم والليلة مئة مرة ، بل مئات المرات ، من شتون إلى شتون ومن أعمال إلى أعمال ومن شواغل إلى شواغل ، لا يقوم من مهام الدولة وأعمالها إلا لعبادة ربه وإمامة المؤمنين ووعظهم وتعليمهم أو إلى شتون بيته وأسرته ، وبينما هو لا يحتم عمله بالنهار إلا ليمهر بالليل متخذاً

(١) الخاض مقدمات الولادة .

من نفسه ومن مولاة « أسلم » أو من يختاره من الصحابة عساً^(١) يدور في أزقة « المدينة » ودروبها ليتسمع لما يجري فيها من شئون، في هدأة الليل الساجي ، وتحت مشار عتمته ، فيرجع وقد بان له أمر السعداء من البائسين والأغنياء من المحتاجين ، والظلمة من المظلومين ، والمناقمين من المؤمنين ، ليتصرف حسباً بدا له ، وبينما هو يتنور^(٢) نيران الليل في أبعاد ضواحي « المدينة » ليسرع إلى كل نار تتوقد ، في فحمة الليل ، فيرى ما عندها من حاجات وجوع وعرى فيرسل النجدة ويحمل بنفسه المعونة ، وبينما هو يرسل الجيوش تلو الجيوش ويضع الخطط الحربية لقواده وعماله ، ويكتب لهم الوصايا بالعدل والرفق بالرعية فتكفل أعماله بالفوز المبين ، وبينما هو يوزع الخيرات بالشمال واليمين وبما يساعده من ألوف الأيدي فتزدهر الحياة ويتشجر الخير وتنمو نبات السعادة في كل مكان ، وبينما هو يستقدم القواد والعمال ليسألهم ويؤدبهم على كل ظلم ارتكبه في الرعية ، لا فرق بين مسلمها وغير مسلمها ، ما دامت رعيته ولما عليه حق العدل والإنصاف ، وبينما هو في غير هذا أو ذلك من الشئون تريض له ريب المنون في أكبر مأساة أصابت الإسلام وأساءت إلى الجماعة الإسلامية أبلغ إساءة ونكبتها بأعظم نكبة .

كان أول خيط في شرك هذه المأساة أن أرسل « المغيرة بن شعبه »^(٣)

(١) هو ما يشبه في زماننا دورية البوليس ليلا .

(٢) يتطلع وينظر .

(٣) أحد أعلام الصحابة ومشاهيرهم .

من بلاد « الفرس » إلى « عمر » يستأذن في أن يرسل إلى « المدينة » عبداً له فارسياً لا يزال على مجوسيته، لما قد يعود على « المدينة » من منافع بوجوده فيها . لأنه يجمع بين عدة صنائع مهرة فيها وأجاد . . ولم يملك « عمر » الحريص على خير أهل « المدينة » وسعادتهم وراحتهم إلا أن يأذن له مع أن دستورهم الذى وضعه . من قبل ، هو ألا يدخل « المدينة » من السبي سوى من لم يبلغوا الحلم . ودخل الغلام الفارسى المجوسى « أبو لؤلؤة » وفى قلبه من الحقد ليل مظلم لا يدري ما يختبئ في زواياه من شر وهلاك . وبعد أن أقام بالمدينة مدة ، وعرف منها ما لم يكن يعرف ، ورأى جموع الأسارى تتوارد من بلاده وأخبار النصر تتوالى حدثه شيطانه بحديث خطير : ذهب مضطغناً إلى « عمر » وشكا إليه من ضخماته الخراج الذى فرضه عليه سيده « المغيرة بن شعبة » . فقال له « عمر » : ما معك من الصنائع ؟ فقال : حداد نقاش نجار . فقال له : ما أرى خراجك كثيراً على مالك من صنائع . ولم يقل « عمر » سوى الحق . لأن هذه الصنائع كانت رائجة بالمدينة . ولم يكن الخراج الذى فرض عليه أكثر من مائة درهم كل شهر أى دينارين على التقريب ربما حصلهما من عملية واحدة . ولما رده « عمر » مضى متدمراً . بينما راح « عمر » يفكر في خير يوصله إليه ليشعره بعدالة الحكم ويزيل من نفسه مرارة الظلم الذى يكرهه « عمر » كراهية طبع وسليقة . ورآه « عمر » ذات يوم في الطريق فاستدعاه ولاطفه ليزيل وحشة صدره . وقال له : ألم أسمع أنك تقول : لو شئت لصنعت رحي تطحن

بالريح ؟ فقال الشيطان والحقد يتدفق في كلماته ويتعثر في نبراته : لأصنعن لك رحي يتحدث بها الناس . . فلما ولي قال « عمر » : توعدني العبد آنفاً (١) . . يا لها من تعامة لذلك المجوسى الذى اتسعت له أحضان مدينة الرسول ولم تحرمه مجوسيته من عطف « عمر » وحذب المسلمين المتساعحين . ولكنه كان لا يعرف للخير وجهة ولا يرى غير الشر طريقاً . لقد كان اللعين يستطيع أن يصنع لعمر تلك الرحي التى تدور بالريح ، على مرتفع من مرتفعات المدينة السعيدة الرافلة فى الفردوس ، ليراها أمير المؤمنين ، ويفرح بها ، ويغدق عليه الخير جداول مترعة . ويراها عليه القوم رجالاً ونساء ، ولتفرح بها العذارى فى خدورهن كحدث من الخير جديد لم يقسم لمدينة فى النواحي قبل بلدهم السعيد الطيب ، وليهلل لها الأطفال والصبيان فرحين كلما نفخت فى أشرعها رياح البحر مقبلة من نحو « تهامة » (٢) كل ضحوة ، وكل عشية ، فراحت ترقص طرباً وتديه إعجاباً وتنتج الخير والراحة والسعادة . ولعله لو عاش وعاش أمير المؤمنين لرأى يوماً دررته (٣) تتناول سيده « المغيرة بن شعبه » لو ظهر أنه له

-
- (١) أى لقد هدنى ساعة كان يكلمنى الآن . ولو كان « عمر » جباراً يأخذ بمجرد الظن لألق به فى سجن مظلم أو نفاه إلى أقصى الأرض .
 (٢) « تهامة » الساحل الممتد على البحر الأحمر محاذياً للحجاز .
 (٣) الدرة: عصا كان يستخدمها « عمر » لتأديب المذنبين ولو كانوا من أعظم رؤوس الدولة .

ظالم . لقد كان ذلك الجوسى شيطاناً بطبيعته عدواً للخير حاقداً لا يشى
حقده سوى الشر والجريمة .

لذلك أملى عليه شيطانه أن يفكر ويفكر . فصنع لعمر خنجراً ذا
نصلين مقبضه فى وسطه . حتى إذا ما قبضت يده على الوسط أصبحت
محمية بنصلين يحفان بها من الجانبين . فإذا راح يعمل سلاحه يمنة ويسرة
أصاب فى كل جهة ، ولم يجترئ أحد على نزعها من يده إلا إذا كان مختاراً
لنفسه الموت دون ما شك .

وفى غلس ليلة مشتومة دلف الجوسى الشرير إلى ركن شديد العتمة
من أركان المسجد ، وراح ينتظر على أحر من الجمر حضور « عمر »
للصلاة . وكان يبكر لإيقاظ النائمين ، كما هى عادته التى لا تتغير .
ومكّن له فى الفرصة أن سُرّج المسجد كانت تطفأ بعد صلاة العشاء حذراً
من الجردان (١) التى كانت تجرد الذبالات (٢) المشبعة بالزيت لتأكلها ،
فيحدث أحياناً أن تجرها مشتعلة فتحتدم النار فى السقف الذى لم يكن
يومئذ سوى جريد النخل اليابس السريع الاشتعال . وكان يصعب إشعالها
فى الفجر ، فبقى المسجد على ظلامه الرهيب .

وتقدم « عمر » بنشاطه الجهم وسروره الفياض بساعة العبادة وبينما هو
قائم يناجى ربه فى صلاته كان الجوسى يتحسس خنجره حتى مكن يده

(١) نوع من الفأر ينشئ المنازل .

(٢) فتأمل القطن وكانت مصابيحهم منها بعد غمرها بالزيت وإشعالها .

منه فلم يبق سوى سلاحين بارزين يحفان بيده . ثم وثب وثبة النمر الغادر وراح يسرع في طعناته حتى أودع البدن الطاهر طعنات مسممة بالحقد والشر والحبث . وكانت إحداها نافذة في الجوف تحت السرة . فلما أحس بحرارة الحديد قال : أكلني الكلب . . وتداعى الصحابة إليه فأعمل فيهم خنجره حتى أصاب منهم ثلاثة عشر رجلاً مات سبعة منهم . ولم يمكن القبض على النمر الشرس إلا بعد أن ألقى عليه أحد الحاضرين رداء من النسيج الغليظ وكم أنفاسه فأعمل اللعين خنجره في نحره وذبح نفسه بسلاح البغي الذي أذى به من أواه وأحسن إليه . وجاء « عبد الرحمن ابن عوف » فاجتز رأسه وبشس المصير .

واحتمل البطل « عمر » إلى داره ودمه يروى تراباً طاهراً طالما دافع عن حوزته ، وأماط عنه الأذى ، ونشر على صفحته أسمى مبادئ الظهر والعدل والحب والإخاء والرحمة . وكان أول أمر فكر فيه بعد إفاقة الأولى أن سأل عن أصيبوا ، وأرسل من يأتيه بنجر قاتله . فقيل له : إنه « أبو لؤلؤة » فقال : الصنع ؟ ^(١) لقد كنت أفكر فيه خيراً قاتله الله . ثم استراح واطمأن . وقال : الحمد لله أن قتلني رجل لم يسجد لله سجدة يحاجني بها أمام الله يوم القيامة . ثم فاضت أعظم نفس تألقت في ذلك العالم وانطفأ إلى آخر الدهر ضياء لم يجد بمثله زمان .

(١) أي الماهر في الصناعات .

رقم الإيداع	١٩٩٥/٨٣٤٢
التوقيع الدولي	ISDN 977-02-5036-8

٧/٩٥/١٠٢

طبع بتطبع دار المعارف ا.ج.م.ع.١